

الدكتور زكي نجيب محمود

جِبَّةُ الْعَبِيْطِ

دار الشروق

الطبعة الثانية
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

بيروت، ص ١٠٠، ط ١، ٨٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥١ - ٣١٥١٠١ - بريدًا: الشروق - تليفون: SHOROK 20176 LE
القاهرة، ط ١، شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - بريدًا: شروق - تليفون: SHROK UN 93091

مقدمة

لست أقيس قامتي إلى ذرة من « وِرْدِزُورْث » أو « كُولِرْدِج » الشعراء الإنجليزيين اللذين أخرجنا معا ديوان « الحكايات الوجدانية المنظومة » في أول القرن التاسع عشر ؛ كلا ، ولا أقيس شيئاً في هذا الكتاب بشيء من ذلك الديوان ؛ لكن كان لهذين الشعراء أمل ، كما أن لي أملاً ؛ واتهمج الشعراء في الديوان منهاجا ، فاتهمجت في هذا الكتاب منهاجا .

رأى الشعراء رأيا في الشعر خالفا به المعروف للمألوف إذذاك ، فبسط أحدهما — وردزورث — هذا الرأي الجديد في مقدمة طويلة للديوان ، ثم جاءت بقية الديوان — مما نظم الشعراء — بمثابة التطبيق ، وأصبح ديوان « الحكايات الوجدانية المنظومة » منذ ذلك الحين معلما في تاريخ الأدب يؤرخ به المؤرخون بداية عصر الابتداع .

كذلك رأيت في المقالة الأدبية رأيا أخالف به الذائع الشائع في أدبنا ، وأوافق فيه رجال الأدب في الغرب ، فقدمت للكتاب بفصل في شروط المقالة الأدبية وأوصافها ، ثم عقبته على ذلك

أدب المقالة

إن معظم النار من مستصغر الشرر ؛ ذلك ما قرأته في الكتب وما تعلمته من تجربة الحياة ، وهو ما أجرى القلم بهذه الكلمات ... فليس بعيداً أن ينبه هذا القلم المتواضع — الذى لا يكاد صريره يبلغ سمع صاحبه — أديباً واحداً من أئمة الأدب فى هذا البلد فيتجه وجهة جديدة فى كتابة المقالة الأدبية .

فالمقالة توشك أن تكون فى مصر القالب الأوحى الذى يصب فيه الأديب خواطره ومشاعره ، فأديبنا قصير النفس ، تكفيه المقالة الواحدة ليفرغ فى أنهرها القليلة كل ما يتأجج به صدره من عاطفة وما يختلج به رأسه من فكرة ؛ فإن غضب أديبنا من نقص يلح فى بناء الجماعة أو أخلاق الفرد ، فزع إلى المقالة يصب فيها ثورة غضبه ؛ وإن افتتن أديبنا بجمال الطبيعة الخلاب ، لجأ إلى المقالة يبت فيها ما أحس من عجب وإعجاب ... أما الأديب الذى يريد أن يعالج بؤس البائسين فينشر فى الناس القصة تلو القصة حتى يبلغ ما ينشره ألوف الصحائف كما فعل « دكنز » ؛ أما الأديب الذى يعطف على العمال فيكتب فى ذلك للمسرح الرواية فى إثر الرواية كما فعل « جوزورنى » . أما الأديب

بمقالات هى — باستثناء عدد قليل منها فى نهاية الكتاب — بمثابة التطبيق لما بسطت من قواعد .

قارئى الكريم :

نشدتك الله لا تحكم على قيمة هذا الكتاب بقيمة كاتبه ؛ إن كاتبه ليرجو أن يكبر فى عينيك بهذا الكتاب .

نشدتك الله لا تحكم على هذا الكتاب بعدد صفحاته ؛ إن صاحبه ليأمل أن يشق فى المقالة الأدبية طريقاً جديداً بهذه الصفحات .

نشدتك الله لا تحكم على هذا الكتاب بمعيار قادة الأدب فى بلادنا ؛ إنما نشرت هذا الكتاب لأناهض به أولئك القادة ؛ فكأنما بهذا الكتاب أقول : من هنا الطريق بإسادة لا من هناك .

زكى نجيب محمود

الذي يتلقى خطاباً من قارئة تستفسره الاشتراكية فيرد على الرسالة بمجلدين ، كما فعل « برناردشو » ، أما الأديب الذي يرى علاج الإنسانية في حكومة دولية تملك بزمام العالم كله فيكتب في ذلك كتباً تزيد على الخمسين كما فعل « ولز » . مثل هذا وذلك من الأدباء لم تشهده مصر ، فيؤس البائسين علاجه مقالة ، والعمال تكفي لنصرتهم مقالة ، وحل المشكلات الدولية حسب مقالة ...

فالمقالة إذاً هي عندنا ملاذ الأديب ، الذي ليس له من دونها ملاذ ، ولا بأس بهذا لو كانت المقالة الأدبية في مصر أدباً تعترف به قواعد الأدب الصحيح . ولكن الأديب المصري يكتب المقالة التي لو قيست بمعيار النقد الأدبي لطارت هباءً ، ولأغلقت دولة الأدب من دونها الأبواب ، وإنما قصدت بمعيار النقد ما يكاد يجمع عليه النقاد من أدباء الإنجليز .

فهم هنالك يقولون إن المقالة يجب أن تصدر عن قلق يحسه الأديب مما يحيط به من صور الحياة وأوضاع المجتمع ، على شرط أن يجيء السخط في نعمة هادئة خفيفة ، هي أقرب إلى الأنين الخافت منها إلى العويل الصارخ ، أو قل يجب أن يكون سخطاً مما يعبر عنه الساخط بهزة في كنفه ومط في شفثيه ، مصطبغاً بفكاهة لطيفة ، لا أن يكون سخطاً مما يدفع الساخط إلى تحطيم

الأثاث وتمزيق الثياب . . . هذا السخط على الحياة القائمة في هدوء وفكاهة ، هذا السخط الذي لم يبلغ أن يكون ثورة عنيفة ، هو موضوع المقالة الأدبية بمعناها الصحيح ؛ فإن تضرمت في نفس الأديب ثورة كاسحة جامحة ، فلا يجيز له نقد الأدب أن يتخذ المقالة متنفساً لثورته ، وليسلك — إن أراد — سبيله إلى المنابر يلقي ثورته في موعظة ، لأنها تحتل من الواعظ أعنف ألوان التقرير ، أو ليلتمس سبيلاً إلى القصيدة — إن كان شاعراً — لأن القصائد لا تتنافر بطبعها مع الحماس المشتعل .

شرط المقالة الأدبية أن يكون الأديب ناقماً ، وأن تكون النعمة خفيفة يشيع فيها لون باهت من التفكه الجميل ؛ فإن التمت في مقالة الأديب نعمة على وضع من أوضاع الناس فلم تجدها ، وإن افتقدت في مقالة الأديب هذا اللون من الفكاهة الخلوقة المستساعة فلم تصبه ، فاعلم أن المقالة ليست من الأدب الرفيع في كثير أو قليل ، مهما تكن بارعة الأسلوب رائحة الفسكرة ؛ وإن شئت فاقرا لرب المقالة الإنجليزية « أدسن » ما كتب ، فلن تجده إلا مازجاً سخطه بفكاهته ، فكان ذلك أفعال أدوات الإصلاح .

نريد من كاتب المقالة الأدبية أن يكون لقارئه محدثاً لا معلماً

يسأل أديباً كبيراً مرة فيقول : هل قرأت مقالى فى هلال هذا الشهر ؟ فأجابه : أن نعم ، فسأله : وماذا ترى فيه ؟ هل ترانى أهملت نقطة من نقط الموضوع ؟ فأجابه قائلاً : العفو ، وهل مثلك من يهمل فى مقالة يكتبها شاردة أو واردة ؟! هذه هى المقالة عند قادة الأدب : أن تكون موضوعاً إنشائياً مدرسياً كل فضله أنه جميل اللفظ واسع النظر ، فالفرق بين مقالة الأديب وموضوع التلميذ فرق فى الكم لا فى الكيف . . . فله درك يا معلم اللغة العربية فى المدارس المصرية ! إنك لتتعقب بتأثيرك شيوخ الكتاب بين كتبهم وأوراقهم ، كأنى بك تضغط على أذن الكاتب بين إبهامك وسبابتك حين يحمل قلمه ليكتب ، مذكراً إياه : هل وفيت نقط الموضوع ؟ أين نقط الموضوع ؟!

كلا ، ليس للمقالة الأدبية ، ولا ينبغى أن يكون لها ، نقط ولا تبويب ولا تنظيم ؛ فإن كانت كذلك ، فلا عجب أن ينفر القارئون — يا أيها الأديب — من قراءة ما تكتبون ! لا تعجبوا يا قادة الأدب المصرى ألا يقرأكم إلا قلة من طبقة القارئین ، لأنكم تصرون على أن يقف الكاتب منكم إزاء قارئه موقف المعلم لا الزميل ، موقف الكاتب لا المحدث ، موقف المؤدب لا الصديق ، ويصطنع الوقار فلا يصل نفسه بنفسه ؛ وإلا فخذثنى بربك أى

بحيث يجد القارئ نفسه إلى جانب صديق يسامره لا أمام معلم يعنفه ، نريد من كاتب المقالة الأدبية أن يكون لقارئه زميلاً مخلصاً يحدثه عن تجاربه ووجهة نظره ، لا أن يقف منه موقف الواعظ فوق منبره يميل صلفاً وتيهماً بورعه وتقواه ، أو موقف المؤدب يصطنع الوقار حين يصب فى أذن سامعه الحكمة صلباً ثقيلًا ، نريد للقارئ أن يشعر وهو يقرأ المقالة الأدبية أنه ضيف قد استقبله الكاتب فى حديثه ليمتعه بحلو الحديث ، لا أن يحس كأنما الكاتب قد دفعه دفعاً عنيفاً إلى مكتبته ليقرأ له فصلاً من كتاب !

لهذا كله يشترط الناقد الانجليزى فى المقالة الأدبية شرطاً لا أحسب شيوخ الأدب عندنا يقرونه عليه ، يشترط أن تكون المقالة على غير نسق من المنطق ، أن تكون أقرب إلى قطعة مشعثة من الأحرار الحوشية منها إلى الحديقة المنسقة المنظمة ، ويعرف «جونسون» — ومكانته من الأدب الانجليزى فى الذروة العليا — يعرف المقالة فيقول : إنها نزوة عقلية لا ينبغى أن يكون لها ضابط من نظام ، هى قطعة لا تجرى على نسق معلوم ولم يتم هضمها فى نفس كاتبها ، وليس الإنشاء للنظم من المقالة الأدبية فى شىء . . .

أين هذا من المقالة الأدبية فى مصر ؟ لقد سمعت أديباً كبيراً

فرق يجده القارىء بين الصحيفة الأدبية والكتاب المدرسى ؟
أرأيت كيف يتحدث الصديق إلى صديقه عن حادثة
شهدها في عربة الترام وهو في طريقه إليه ؟ أرأيت كيف يلاحظ
الصديق لصديقه إذ هما يسيران ملاحظة من هنا وملاحظة من
هناك حول ما يقع عليه البصر ؟ انقل هذا براءة الأديب وبراعته
يمكن لك منه مقالة أدبية من الطراز الأول ؛ أما أن تعلم القارىء
فصلا في عوامل سقوط الدولة الأموية أو في أسباب انحلال المجتمع
وما إلى ذلك من فصول ، فذلك مفيد على أنه درس علمي ،
ونافع في عرض اطلاعك الواسع ، ومثقف للقارىء كما يتقنه فصل
من كتاب ، ودافع إلى الفضيلة على أنه موعظة منبرية... ولكن
لا تطمح أن تكون أديبا بما تكتب من أمثال هذه الفصول
والأبواب ، فلن تكون بأمثالها في دولة الأدب قزماً ولا عملاقاً..
أنت بهذه الفصول عالم ولست بأديب . أنت بها قارىء ولست
بكاتب ، وفضلك أن نقلت إلى القراء ما قرأت... وإنه لفضل
عظيم ، ولكنه شيء والأدب الخالص شيء آخر .

فكاتب المقالة الأدبية على أصح صورها ، هو الذى تكفيه
ظاهرة ضئيلة مما يعج به العالم من حوله ، فيأخذها نقطة ابتداء ،
ثم يسلم نفسه إلى أحلام يأخذ بعضها برقاب بعض دون أن يكون

له أثر قوى في استدعائها عن عمد وتدبير ، حتى إذا ما تكاملت
من هذه الخواطر المتقاطرة صورة ، عمد الكاتب إلى إثباتها في
رزانة لا تظهر فيها حدة العاطفة ، وفي رفق بالقارىء حتى لا ينفرد
منه نفور الجواد الجوح ، لأن واجب الأديب الحق أن يخدع
القارىء كي يعمن في القراءة كأنما هو يسرى عن نفسه المكروبة
عناء اليوم أو يزجي فراغه الثقيل ، وهو كلما قرأ تسلل إلى نفسه
ما شاع في سطور المقالة من نكتة خفية وسخرية هادئة ، دون
شعور منه بأن الكاتب يعتمد في كتابته إلى النكتة والسخرية ؛
فاذا بالقارىء آخر الأمر يضحك ، أو يتأثر على أى صورة من
الصور ، بهذه الصورة الخيالية التي أثبتتها الكاتب في مقالته ،
وقد يعجب القارىء : كيف يمكن أن يكون في النفوس البشرية
مثل هذه اللفتات والمحات ! ولكنه لن يلبث حتى يتبين أن
هذا الذى عجب منه إنما هو جزء من نفسه أو نفوس أصدقائه ،
فيضجره أن يكون على هذا النحو السخيف ، فيكون هذا الضجر
منه أول خطوات الإصلاح المنشود .

تركيب العبارة هناك ، كان ذلك متنافراً مع طبيعة السمر المحبب إلى النفوس ؛ هذا من حيث الشكل . وأما من حيث الموضوع فلا يجوز عند الناقد الأدبي أن تبحث المقالة في موضوع مجرد ، كأن تبحث مثلاً فضل النظام الديمقراطي أو معنى الجمال أو قاعدة في علم النفس والتربية ؛ لأن ذلك يبعدها عن روح المقالة بمعناها الصحيح ، إذ لا بد — كما ذكرنا — أن تعبر قبل كل شيء عن تجربة معينة مست نفس الأديب فأراد أن ينقل الأثر إلى نفوس قرائه ... ومن هنا قيل إن المقالة الأدبية قريبة جداً من القصيدة الغنائية ، لأن كليهما تعوض بالقارئ إلى أعماق نفس الكاتب أو الشاعر ، وتتغلغل في ثنايا روحه حتى تعثر على ضميره المكنون ؛ وكل الفرق بين المقالة والقصيدة الغنائية هو فرق في درجة الحرارة : تعلق وتناعم فتكون قصيدة ، أو تهبط وتنائر فتكون مقالة أدبية .

ولما كانت المقالة إنما تتكىء على ظاهرة مطروقة معهودة في الحياة اليومية لتنفذ خلالها إلى نقد الحياة القائمة نقداً خفياً يستره غطاء خفيف من السخرية ، ولما كانت كذلك تسلك في التعبير أسلوباً سلساً مشرقاً ، فقد يُظن أحياناً أنها ضرب هين من ضروب الأدب لا يدنو من القصيدة والقصة والرواية . والواقع على عكس

ذلك ، لأن أرفع الفن هو ما خفي فنه على النظرة العابرة ، فما أكثر من ينجح في كتابة القصة والقصيدة ! وما أقل من يجيد كتابة المقالة ؛ وشأن الذي يستخف بما تطلبه المقالة من فن كشأن الذي يظن أن الشعر المرسل أيسر من القصيد الملقى ؛ ولعل عسر المقالة ناشيء من أنها ليس لها حدود مرسومة يحفظها المبتدئ فينسج على منوالها كما يفعل في القصة أو القصيدة .

إن الذي أريد أن أؤكد مرة أخرى هو أن المقالة الأدبية لا بد أن تكون نقداً ساخراً لصورة من صور الحياة أو الأدب ، وهادماً لما يتشبث به الناس على أنه مثل أعلى ، وما هو إلا صنم تخلف في تراث الأقدمين . أما إن كان الفصل المكتوب بحثاً رصيناً منسقاً فسمه ما شئت ، فقد يكون علماً ، وقد يكون فصلاً في النقد الأدبي ، وقد يكون تاريخاً أو وصفاً جغرافياً كتبه قلم قدير ، ولكنه ليس مقالة أدبية ، كما أنه ليس بقصيدة ولا قصة .

البرتقالة الرخيصة

لم أكد أفرغ من طعام الغداء حتى جاءني الخادم بطبق فيه برتقالة وسكين ، فرفعت السكين وهممت أن أخزّ البرتقالة ، ولكنني أعدتها ، وأخذت أدير البرتقالة في قبضتي وأنظر إليها نظرة الإعجاب ؛ فقد راعني إذ ذاك لونها البديع وجمالها الخلاب ، وشممت لها أريجاً طيباً هادئاً ، ولحّت في استدارتها ومسامها نضارة عجيبة ، فأشفقت عليها من التقطيع والتشريح ؛ ثم نظرت إلى خادى وقلت مبتسماً : لعل برتقالة اليوم ياسليمان لا يكون بها من العطب ما كان بتفاحة الأمس ؟ فقال : كلا ياسيدى فلن يكون ذلك قط ، فإن من خلال البرتقال التي يتميز بها عن سائر ألوان الفاكهة أن العطب يبدأ من خارجه لا من داخله ؛ فإن وجدت قشور البرتقالة سليمة فكن على يقين جازم بأن لبابها سليم كذلك ، فالبرتقالة بذلك أمينة صريحة صادقة ، لا تخفى بسلامة ظاهرها خبث باطنها ، ولا كذلك التفاحة ، التي قد تبدى لك ظاهراً نضراً لامعاً ، فإذا ماشقت جوفه ألقته أحياناً مباءة يضطرب فيها أخبث الدود ! فقلت : تلك والله ياسليمان خلة للبرتقال لم أكن أعلمها من قبل ، ولكنني أتبين الآن أنها

حق لاريب فيه ، وإنه بهذه الخلة وحدها لجدير من بائع الفاكهة أن يرصّه في صناديقه الزجاجية ، وأن يلفه بغلاف من ورق شفاف حرصاً على هذه النفس الكريمة أن تستدلّ وتهان في المقاطف والأفئاص ، فهو لعمرى بهذه العناية أجدر من التفاح الخداع ... وماذا تعلم ياسليمان غير ذلك من صفات البرتقال ؟ فقال : إنها لتشبع الحواس جميعاً ، فهي بهجة للعين بلونها ، وهي متعة للأنف بأريجها ، ولذة للذوق بطعمها ، ثم هي بعد ذلك راحة للأيدى حين تديرها وتدحرجها كما تفعل ياسيدى الآن ، ولقد لبست البرتقالة معطفاً من جلد جميل ، فإذا ما انتهت إلى آكلها نصت عن نفسها ذلك العطف الذي لامسته الأيدى ، لتبدو لصاحبها بكرة لم تفسدها جرائم السوء والمرض ؛ وهي فوق ذلك كله لم تنس أن تحنو بفضلها على الفلاح المسكين ، لأنها قررت منذ زمن بعيد أن تمنحه جلدتها ليلحمه فيأكله طعاماً شهياً ، وليس بالتقليل أن يظفر زارع البرتقال بقشوره مادام السادة قد نعموا باللباب ، فهو اعتراف بالجميل محمود على كل حال !

قلت : أفبعد هذا كله يستخف بقدرها الفاكهاني ، فيقذف

بها قذفاً مهملًا في الأوعية والسلال؟! أفبعد هذا كله تقوّم
البرتقالة في سوق الفاكهة بلميمين، وتقدر التفاحة بالقروش؟!
تالله لو كنت موزع الأرزاق على هذه الفاكهة لغيرت معايير
التقييم وقلبتها رأساً على عقب، فأبيع هذا البرتقال الجيد بالوزن
والثمن الكثير، والتفاح بالعدد والثمن البخس الرخيص، فلست
أدرى لماذا لا يكون أساس التقويم ماتبيديه الفاكهة من جودة
وإخلاص!؟

قلت ذلك وكانت رنة الأسى في قولي تزداد شيئاً فشيئاً
حتى خشيت أن تنقلب إلى ثورة، فلا يجد الثائر ما يحطمه غير
أثامه، فأكلت البرتقالة وحمدت الله على نعمته...

وهنا نقر الباب طارقُ نقرة خفيفة، ثم دفعه في أناة وأقبل،
وأخذ يدنو بخطى ثقيلة حتى اقترب من المائدة، فألقى عليها
غلافاً مليئاً بأوراق، ثم جلس ونظر إلى نظرة يشيع منها اليأس،
وابتسم ابتسامة خفيفة ينبعث منها القنوط وخيبة الرجاء، فسألته:
ماذا دهاك؟ فأجاب: انظر! وأشار بأصبعه إلى الحزمة الملقاة
قائلاً: لقد رفض الناشر أن يتعهد طبع الكتاب، وهكذا ضاع
مجهود أعوام ثلاثة أدراج الرياح! فسألته: وماذا قال الناشر؟

فأجاب: زعم لي أن الكتاب جيد لا بأس بمادته، ولكنه
لا يتوقع له سوقاً نافقة، لأن العبرة عند القارئ بالكتاب
لا بالكتاب، ألسنت ترى في ذلك يا أخي عبثاً أي عبث؟

قلت: هون على نفسك الأمر ولا تحزن، فكتابك هذا
برتقالة رخيصة، وكف في الأشياء ما هو جيد ورخيص! وإن ذلك
ليذكرني بيوم أشقيت فيه نفسي بتحرير مقالة جيدة ممتازة،
وحملتها فخوراً إلى صاحب الصحيفة الأسبوعية، وجلست أمامه
أرغب كلمة التقدير تنحدر بين شفثيه، فما راعني إلا أن أراه
ينفذ مسرعاً إلى آخر المقالة يقرأ الإمضاء، فالمقلات عند سادتنا
أولئك تُقرأ من أذيالها لا من رؤوسها! ثم مط شفثيه مطافهمت
معناه، ودفعها بين أوراقه حيث امتقرت إلى الأبد، وهأنذا أتبين
اليوم أن مقالي — ككتابك — برتقالة رخيصة... فخير لنا
وأقوم أن نكون تفاحاً معطوباً من أن تكون برتقالة
جيداً لذيذاً.

ألا ما أكثر بين الناس هذا البرتقال الرخيص! فإن شئت
حدثتك عن رجل يكيل له أولو الأمر المدح والثناء، ولكن كما
يمدح الآكلون البرتقال. يستمرثونه ولا يدفعون له إلا ثمناً
قليلاً، وإن شئت حدثتك عن رجل أراد الزواج، فوجدت فيه

بها قذفاً مهملًا في الأوعية والسلال؟! أفبعد هذا كله تُقوِّمُ
البرتقالة في سوق الفاكهة بلميمين، وتقدّر التفاحة بالقروش؟!
تالله لو كنت موزع الأرزاق على هذه الفاكهة لغيرت معايير
التقييم وقلبتها رأساً على عقب، فأبيع هذا البرتقال الجيد بالوزن
والثمن الكثير، والتفاح بالعدد والثمن البخس الرخيص، فلست
أدرى لماذا لا يكون أساس التقويم ماتبيديه الفاكهة من جودة
وإخلاص!؟

قلت ذلك وكانت رنة الأسي في قولي تزداد شيئاً فشيئاً ه
حتى خشيت أن تنقلب إلى ثورة، فلا يجحد الثائر ما يحطمه غير
أثامه، فأكلت البرتقالة وحمدت الله على نعمته ...

وهنا نقر الباب طارقُ نقرة خفيفة، ثم دفعه في أناة وأقبل،
وأخذ يدنو بخطى ثقيلة حتى اقترب من المائدة، فألقى عليها
غلافاً مليئاً بأوراق، ثم جلس ونظر إلى نظرة يشيع منها اليأس،
وابتسم ابتسامة خفيفة ينبعث منها القنوط وخيبة الرجاء، فسألته:
ماذا دهالك؟ فأجاب: انظر! وأشار بأصبعه إلى الحزمة الملقاة
قائلاً: لقد رفض الناشر أن يتعهد طبع الكتاب، وهكذا ضاع
مجهود أعوام ثلاثة أدراج الرياح! فسألته: وماذا قال الناشر؟

فأجاب: زعم لي أن الكتاب جيد لا بأس بمادته، ولكنه
لا يتوقع له سوقاً نافقة، لأن العبرة عند القارئ بالكتاب
لا بالكتاب، ألسنت ترى في ذلك يا أخي عبثاً أي عبث؟

قلت: هون على نفسك الأمر ولا تحزن، فكتابك هذا
برتقالة رخيصة، وكم في الأشياء ما هو جيد ورخيص! وإن ذلك
ليذكرني بيوم أشقيت فيه نفسي بتحرير مقالة جيدة ممتازة،
وحملتها فخوراً إلى صاحب الصحيفة الأسبوعية، وجلست أمامه
أرغب كلمة التقدير تنحدر بين شفثيه، فما راعني إلا أن أراه
ينفذ مسرعاً إلى آخر المقالة يقرأ الإمضاء، فالمقلات عند سادتنا
أولئك تُقرأ من أذيالها لا من رءوسها! ثم مط شفثيه مطافهمت
معناه، ودفعها بين أوراقه حيث استقرت إلى الأبد، وهأنذا أتبين
اليوم أن مقالي — ككتابك — برتقالة رخيصة ... فخير لنا
وأقوم أن نكون تفاحاً معطوباً من أن تكون برتقالة
جيداً لذيذاً.

ألا ما أكثر بين الناس هذا البرتقال الرخيص! فإن شئت
حدثتك عن رجل يكيل له أولو الأمر المدح والثناء، ولكن كما
يمدح الآكلون البرتقال. يستمرثونه ولا يدفعون له إلا ثمنًا
قليلاً، وإن شئت حدثتك عن رجل أراد الزواج، فوجدت فيه

ذات المليمين

لست أدري متى وكيف تسلك هذه القطعة من ذات المليمين إلى نقودي، ولكن الذى أدريه فى يقين هو أنها عمرت هنالك شهراً كاملاً، تنتقل معى حيث أنتقل وتسير حيث أسير، تحاول جاهدة أن تجد سبيلها إلى الإنفاق، وأنا أغلب طبيعة البشر فأعاونها فى ذلك، فما أجد لها السبيل؛ ولعلك تدري شيئاً من هذا الصراع الدائم القائم بين المال وصاحبه، هذا يشد المال إلى جيبه شداً لا يريد له أن يشهد النور، والمال ينتقى لنفسه أن يتنفس الهواء الحر الطليق، فيجرب دافقاً سيلاً بين أصابع المتعاملين؛ تارة تحسه أيد ناعمة لكنها تستخف به وتردريه، وطوراً تنظر به أيد خشنة لكنها تتقبله قبولا حسناً وتكرم له المشوى؛ وإن ذلك لمن عجب الحياة الذى لا ينقضى، فإن طاب لك المأوى ألفت به الشوك والحسك مما يستذل النفوس ويؤجج الصدور، وإن التمت لنفسك العزة وجدت مأواك خشناً غليظاً... ومهما يكن من أمر، فقد ألحقت هذه القطعة تنشد لنفسها الفكك، وغالبت نفسى وعاونتها على الإنفاق، ولكن كان لها القدر بالمرصاد.

الخطوبة ماتتتهى من خلق قويم ورأى مستقيم، ولكنها نظرت فإذا هو فى سوق السلع بضاعة بخسة مزجاة، فهزت كتفيها ومطت شفتيها وقالت مفضبة: ردّوه! إنه برتقالة رخيصة تمتدح ولا ولا تشتري، وإن شئت حدثتك وحدثتك...

فتى؟ متى يارباه يعرف الفاكهاني لهذه البرتقالة المسكينة قدرها؟ ...

فهاأنذا عند دار السينا أضرب بمنكبي مع الضاربين ، لعل
أجد السبيل إلى شباك التذاكر ، وقد ضربت حوله زحمة الناس
نطاقا يخنق الأنفاس ، وأين من هؤلاء القوم من يواتيه حظه
السعيد فيبلغ عتبة الشباك ؟ إن عيون المتزاحمين لتكاد تفتك به
من حسدها له على توفيقه فتكا ... وحان الحين وكنت أنا
المرموق بهاتيكَ العيون الفواتك ، ووقفت أمام الشباك أملاً
عارضته بمرفقي ، ولكنني أسرعت الحركة والكلام لتطمئن
نفوس المنتظرين الناظرين فلا يحقدوا ، وضربت يدي في جيبى
وأخرجتها فقذفت بما أخرجت لبائعة التذاكر ، فإذا بها ذات
المليمين تتحرك على رخامة الشباك في رعونة الأيفاع ...

وجلست في مقهى مع طائفة من الأصدقاء ، لا تزال بيني
وبينهم حواجز الكلفة قائمة ، يحاول كل منا أن يستر من نفسه
الفقر والجهل والضعفة ، ليظهر الثراء والعلم ورفعة المكانة بين الناس
وجاء الخادم يتقاضانا ثمن ماشر بنا ، فتسابقت الأيدي مخلصاً إلى
الجيوب — ياليتها تدرك أحجاب المسغبة بعشر معشار هذا الوفاء
لأحباب اليسار ! — فهذا موقف من المواقف النادرة التي ينعم فيها
من يثبت للآخرين غناه ، وأخرجت كل يد ما فيها على المنضدة
في سرعة متلهفة ؛ فقذف واحد بريال قوى المضلات ، صاح

الرين ، ونشر آخر جنيهاً من الورق بين أصبعيه ، وقذفت على
المنضدة بما حملت يدي مع القاذفين ، فإذا بنصف ريال يأخذ
مكانة لا بأس بها بين القذائف ، ولكن دارت إلى جانبه ذات
المليمين فخطت من قدره وقيمته . وشاء الحظ العاثر أن تتمر هذه
القطعة المنكودة في دورانها حتى هوت إلى الأرض في رنين ضئيل
فأنجني أحد الأصدقاء إليها وردّها إلىّ ، فأخذتها والجبين يتندى
من الخجل ، فليس يشرف المرء في مثل هذه المواقف أن يضم
جيبه شيئاً من ذوات الملاليم !!

وكنت أجالس فئة من رفاقي ، وأرادت المصادفة أن يدور
بيننا حديث أخذ يشتد فيه الجدل ويشد حتى اضطرم واشتعل ،
فجاء زميل يجمع منا قدراً من المال نحسن به على خادم طاحت
يد المنون بزوجه ، وعجزت دراها أن تقلقل الجثة من سريرها إلى
القبر ، فجاءنا يطلب الإحسان — والموت يقسو على الفقير كما
تقسو عليه الحياة ، فلا هو إن عاش حتى بين الأحياء ، ولا هو إن
مات واجد سبيلاً ميسورة إلى مرآة الموتى ! — ودار الزميل
الكريم يلقف من الأصابع ما امتدت به ، ومددت أصبعي
ذاهلاً مشتغلاً بما أنا فيه من الجدل وقد كدت أنتصر ، وإذا
بالزميل يتسلم لي قائلاً : لا بأس فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها ،

القروش ! فأدخلت يدي إلى نقودي في رعدة الخجل ، وأصلحت
الخطأ ، وقدمت للرجل المعذرة بالابتسام والكلام ... وأردت
أن أثبت للجالسين براءتي — ووجهتي — فأحسنت بذات
اللمين إلى فقير قفز إلى سلم العربية يطلب الإحسان . وانتهى
بذلك تاريخ مؤلم طويل .

لكن الله الذي يضمخ الخير في الشر ، قد أراد لهذه القطعة
الخبثية ألا يذهب عنى بلاؤها بغير درس مفيد ، بصّرني بناحية
من طبائع الناس لذينة ومضحكة معاً .

فقد جلست بين جماعة ذات مساء ، وكان في الحاضرين
أديب شاب لم يتجاوز العشرين ؛ هو الذي حشر نفسه في زمرة
الأدباء حشراً بغير دعوة منهم ولا قبول . ولست أعلم من ماضيه
الأدبي إلا مقالة نشرتها له مجلة أسبوعية ، ولو اكتفى بهذا الحد
من الأحلام لكان جميلاً ، لأن الأحلام الحلوة التي تنفع صاحبها
ولا تؤذي الآخرين ليس بها بأس ولا ضرر ؛ ولكن الغرور أخذ
من هذا السخيف مأخذاً شديداً ، فإذا به لا يكتفي أن يكون
أديباً من الأدباء ، ولكنه — لو أنصف الزمان وعرف للناس
أقدارهم — في الطليعة منهم ، وشيوخ الأدب يقفون له بالمرصاد

وضحك الحاضرون جميعاً ، ونظرتُ فإذا بذات اللمين بين إصبعيه
فجذبها في حركة عصبية سريعة ، وفي يتمم ألفاظ الأسف ،
وأخرجت ضعف ما أحسن به الآخرون لأعوض هذه السقطة ،
فن أمثال هذه السقطات ترتسم شخصية الرجل في أذهان الناس !

حقاً إن العرق دسّاسٌ ومن تجرى في عروقه دماء النذالة
والضعفة هيئات أن يُخفى عن الناس طويته ، فالنفس لا بد يوماً
مفضوحة بسلوها ، ولو حاولت أن تسدل على مكنونها ألف ستار
وستار ... فهذه القطعة ذات اللمين — فيما يظهر — قد استغلت
شبهها بذات القرشين استغلالاً دينياً خسيساً ، وأشهد الله أي من
إجرامها برىء ! فقد عنّ لي يوماً أن أسلك نفسى في زمرة الوجهاء
ولست منهم في غير ولا نغير — فركبت الترام في الدرجة الأولى
وجاء الكسارى يجبي من الراكبين الأجور ، وكنت منه في
أقصى المقصورة ، فمددت له يدي بذات قرشين ، وأراد أحد
الراكبين أن يعينني على ما قصرت عنه ذراعي ، فأخذ مني قطعة
النقد ليعطيها للعامل ، ورأيته ينظر إلى القطعة في يده ثم إلى ،
ولكن أدبه قد شاء له ألا يتدخل في أمر لا يعنيه ، وناولها إلى
بائع التذاكر ، فنظر إليها الرجل وقال : ما هذا ؟ فقلت : خذ
قرشاً وهات قرشاً ، فقال : عشنا ورأينا ذات اللمين تلد من جوفها

لا يخلون بينه وبين النشر ، لأنهم ينفسون عليه ما وهبه الله من عبقرية ونبوغ !!.. فقلت لنفسي : أليس هذا بين الناس قطعة من ذوات المليمين تستغل شبهها بذات القرشين ، فتدس نفسها بين الريالات وأنصافها دساً دنيئاً قد يخدع الغافلين ؟ !

وحدثني صديق أراد لنفسه الصدارة فالتحق بجمعية أعضاؤها طائفة ممتازة من علية القوم ، فخالطهم ، ولكنهم لما يخالطوه ، وهش لهم وابتسم ، ولكنهم تولوا عنه وعبسوا فجاءني شاكياً باكياً من لؤم الطباع الذي يؤلم ويُشقى ؛ فقلت له وقد تلقيت العبرة من ذات المليمين : أعلم أن في النقود ريالات ومليمات ، فإن وَجَدْتَ واحدةً من ذوات المليمين نفسها بين الريالات فظنت نفسها « عضواً » في هذه « الجماعة » فأصابها ما أساء إليها وأشقاها فليس الذنب ذنب الريالات المتكبرة ، لكنه ذنب ذات المليمين لأنها أرادت أن تكلف الأشياء ضد طباعها ، إذ أرادت — خطأ — أن تكون ريالاً .

شيطان الجرذ

حدثني صاحبي ، وكان بمن يفهمون عن الحيوان الأعجم ، أن جرذاً يافماً كانت تسرى فيه الحياة مرحة وثابة ، فكان كله قوة وكله أملاً وكله حركة ونشاطاً ، كأنما انسكب في أعصابه من الحياة أكثر مما تسع أعصابه ، فهو لا يستطيع — وإن أراد — أن يقر في مكان ساعة من زمان ، ولا يعرف من دهره إلا أن يسير في مناكب الأرض سعياً وإن لقي في سبيل ذلك حتفه . فما أرخص الموت عنده بالقياس إلى إثبات وجوده وتقرير ذاته ، حتى لا يطوى العمر دون أن يحسه الوجود . فإن هالك هذا الأمل العريض ينشده مثل ذلك البدن الواهن العاجز فابتسمت إشفاقاً وسخرية ، أجابك في مثل سخريتك بأن الوجود وجوده هو ، وبأنه من الغفلة أن يكون وألا يكون في آن معاً . فاضحك ما شئت فلن ينثنى الجرذ عن أن يكون في دنياه شيئاً كما أراد له بارئته أن يكون !

وكان الجرذ وحيد أمه ، فرأت منه تلك الأم العجوز المحطمة ذلك الوثوب فلم يكن معناه في قاموس ألفاظها إلا النزق والطيش ، فلم تدخر وسعاً في الحد من نشاط وليدها وهو قرة عينها وأملها

الذى يعيد لها الشباب بشبابه ، فكانت تستقبله فى لهفة الأم
الحدبة الحنون وتكيل له عظام السنين نصحاً بالألأ ينصاع لدعوة
شيطانه الخبيث : ألا ترحم يا ابنه أمك المكتهلة ؟ ما ضرك أن
تهداً فى كمينك بين ذراعى وأمام بصرى ؟ لئن يكن قد أغراك
بالدنيا رعدا وبرقها ، فما ذاك يا ولدى إلا رعد خُلب و برق
كذوب ! وإن يكن قد أهاب بك صوت المجد ، فما ذاك يا بنى
إلا صيحة الشيطان فىك ، يابى عليك الأمن فىنصب لك حباتل
الموت باسم المجد والخلود ! خذها كلمة أملتها تجربة الستين : لن
يقنم الحى من حياته إن كان حكىماً بأكثر من الدعة والمهدوء ؛
ماذا تجدى على الدنيا بأسرها إن راعك سنور فدهاك فقجنى
فىك ؟ القناعة القناعة يا ولدى ، فأقل العيش مع القناعة خير
وفير ، وملك الأرض كلها مع الطموح الكاذب يسير حقير ! ..
عاد الجرذ يوماً من جولة المساء فاستقبلته أمه بهذا النصح
الذى وقع منه موقع السحر ، فتسلل إلى مخدعه واندى فى فراشه
وهو يردد : نم ماذا تجدى الدنيا بأسرها إن راعنى سنور فدهانى
فأوردنى مر الختوف ؟! صدقت يا أماء ، فلن أبرح الدار بعد
اليوم ، وحسبى من دهرى زاد يقيم الأود ويحفظ الأنفاس . إن
الشرف لىقتضىنى ألا أستمع لهذا الشيطان الملعون الذى يوسوس

لى كلاً أقبل المساء أن أتستريح تحت جناحه الأسحم وأسطو على ملك
غبرى من عباد الله ! كلاً ! إن هذا الشيطان العايب لىزخرف لى
الرزيلة بأكليل المجد الزائف ، ويشوه فى عىنى الفضيلة فىسمىها
لى استكانة وخنوعاً !

وأخذت الفأر اليافع سنةً من النوم وهو يغالب فى نفسه
هذه الأهواء المصطرة المتنازعة ، فصوت أمه يدعوها إلى ملاينة
الدهر والرضى بأخشن العيش وأغلظه ليقنم السلامة ويجنب نفسه
الخطر ؛ ونعم الدنيا يغريه بالمنازلة والجهاد حتى يظفر لنفسه بأمته
العيش وأنعمه ، فلا ينبغى أن يقنع باليسير وغيره غارق إلى آذانه
فى الوفير الغزير ويقول هل من مزيد والحياة تعطيه !... ولم يكذب
يفظ الجرذ المذكور فى نعاسه حتى رأى فى نومه ، ويا لهول مارأى ،
رأى فى السماء سحابة حمراء أخذت تتشكل وتستوى حتى
استقامت أمام ناظره كأنها خيفاً ترتعش شفاهه من الغىظ وتكاد
تقدح عيناه الشرر ؛ وأخذ يحدق فى الفأر الصغير وكأنما يرسل
فى نفسه من نظراته سهوماً مسمومة يرتعد لها الفأر ويرتاع ،
فقال الجرذ فى رجفة الجازع .

— من ؟

— أنا شيطانك الأمين .

— أعزب عنى فلن أستجيب لك بعد اليوم . إني أعوذ
منك بنصيحة أمي !

— بل يا أحق لُدْ بقيادى من نصيحة أمك ... نصيحة ؟
إنها للضلال المبين ! كأنى بك قد أصخّت إلى هذا الهراء الذى
لقتته أمك إياك منذ حين ! يا بنى لا تحذعنك ألفاظ الفضيلة
والحكمة الجوفاء . إنها سموم أنشأها لكم القوى إنشاء لتسكن
أعصابكم وتهدا نفوسكم ، حتى إذا ما تداريتم فى بطون جحوركم
أخذ يتقلب فى نعيمه ويتمرغ فى أسباب ترفه . لماذا يكفيك من
عيشك كسرة خشنة ولغيرك أطيب الآكال ؟ ألسنت تؤدى
للحياة واجب الحياة على أتم نحو وأكل صورة ؟ فقم وانهض إلى
الدنيا العريضة مجاهداً حتى تنزع من مخلب الدهر حياة مريثة
فيكون لك بها نشوتان ، نشوة الغنيمة نفسها ونشوة الظفر
بالغنيمة ، قم واملا الدنيا ضجة وصياحا حتى يعترف لك الوجود
بالوجود .

— ولكن السنور الأشهب يحول فى البيت فيملاً
أهباه بموائه ...

— تبا لكم يا معشر الجرذان ! إنكم لا تنفكون تضعون
لأنفسكم الحوائل تبريراً لعجزكم أمام ضمائركم المعتلة . إن هذا

السنور نفسه لداعية لك أن تنهض وتسرى فى أنحاء الدار ، حتى
إذا ما ظفرت ببغيتك صحت فى استكبار الظافر ، تلك ببغيتي
أصبتها وأنف السنور فى الرغام ... وهل يلذ السعى ويطيب
الجهاد بغير ذلك العدو العنيد تغالبه فتغلبه ؟ أكنت تريد أيها
الجندي الخائر أن تحارب فى الموقعة بغير أعداء ثم تزعم لنفسك
النصر والظفر ؟

— إن لكلامك يا شيطانى لسحراً أبلغ السحر حتى لكأن
ألفاظك يا لعين شواظ من نار تلتهب أواراً فى حشاي ... لكم
وددت أن أتابعك لولا أن تقول أمي ويقول الجرذان : لقد تابع
الفر شيطانه المرید !

— إن فعلوا فقل لهم : لهذا الشيطان صوت الحق والحياة ،
وإنكم لدعاة الجمود والموت ، فشيطانى أحق أن أتبع . إن مايشير
به الكهول يا بنى باسم الحكمة خدعة باطلة ، وإسمه الصحيح
هو الجبن والخور . أفأنت بحاجة إلى أن أذكرك بأنه لن يصيب
نعيم الدنيا إلا الفاتك اللهيج ؟ هذه دول الأرض جميعاً فانظر أيها
الظافر ، أمي التى خشيت وثبة النمر فقبعمت فى عقر دارها أم من
تممرت فوثبت فكان لها من رقاع الأرض أوفر الحظوظ ؟ إنه

لخير لك ألف مرة أن تستأسد يوماً ثم تموت من أن تعيش في هذا الخمول قرناً كاملاً .

فثارت نحوه الفأر واشتعلت حماسه ، ونفض الفراش من حوله وأقسم ألا يستسلم بعد الساعة لدعوة أمه العجوز . وانتفض انتفاضة عنيفة استيقظ على إثرها من نعاسه ، واستوى جالساً في مخدعه يستعيد ما أملاه عليه شيطانه في حلمه ، وإذا به كلمة الحق والقوة والحياة ، ثم جهر في صوت مسموع : نعم لن أصبر على هذا العيش الغليظ لحظة واحدة ! وسمعت أمه القول فارتعدت في نومها فازعة :

— ماذا تقول يا بنى ؟

— وداعاً يا أماه ، فانهى أنت بأنفاسك الدليلة لتغنى العافية ، أما أنا فلن أدع نحوه من أنحاء البيت إلا ارتدته ونعمت بما فيه ، وهنيئاً بعد ذلك بمخلب القط .

وتسلل الجرذ إلى حجر الدار وأبهائها ، فهذا طعام شهى يأكله وذاك شراب سائغ يستقيه ، فإذا أثقل الكرى جفنيه تحير لنفسه بين أردية الدمقس مرقداً وثيراً . وتعاقبت الأيام والليالي والفأر الصغير النشيط ناعم في عيش هنىء مرىء ، حتى كان مساء مشثوم ، وإذا بمخلب السنور يهوى في ظلمة الليل

فيفرس أظافره في الجردز الممتلىء ، ويصيح هذا صيحة ترن أصداؤها في جحر الأم فتأني لاهثة جازعة لتزى وليدها ووحيدها جريماً طريماً أمام القط الكاسر .

— يا ويلتاه ! لقد كان ماخفت أن يكون .

— عني يا أماه للموت بعد نعيم العيش أشهى من الحياة في ظلمة الجحور .

ثورة في خزانة الكتب

شاءت لي المصادفة البصيرة — والمصادفة قد لا تكون عمياء — أن أقرأ في ليلة واحدة فكرتين في كتابين مختلفين ، لا علاقة لإحدهما بالآخرى ، ولكنهما — على ما بينهما من تفاوت بعيد — تعانقتا في ذهني ، واتحدتا فتكوّن منهما ازدواج عجيب ؛ أما الأولى فهي أن آباءنا من المصريين الأقدمين كانوا ينسبون للأسماء المنقوشة على التماثيل والتوابيت قوى سحرية عجيبة ، تكاد تدنيها من الأحياء ؛ فهم لم ينقشوا أسماء موتاهم على تلك الأصنام الحجرية للزخرفة والزركشة والزينة ، بل ليكون لها في جوف القبور قدرة أن تصيح للروح فتهتدى بصياحها إلى الجسد الراقد لتسرى فيه الحياة من جديد . وأما الفكرة الثانية فكانت تعليقا لكاتب حديث على رأي فيلسوف قديم في ارستقراطية العقل وحلها محل ارستقراطية المال . إذ أراد أن يلقي زمام الأمر في الدولة إلى من تثبت لهم الكفاءة العقلية والأى يخلى بين الأدنين في قدرتهم الفكرية و بين مناصب الدولة العليا ؛ فليس أشد عبثًا في هذه الحياة من أن يحرص الإنسان ما وسعه الحرص على أن يختار أحسن الحدّائين لإصلاح حدّائه ، وأن

ينتقى أحسن السائسين لتدريب جياده ثم لا يعبأ بمن يتولى إصلاح دولته !

فرغت من القراءة فأعدت الكتابين إلى خزانة كتي ، وليس فيها سوى بضع مئات قليلة منها ، تتفاوت أقدارها العلمية ، من كتب في المطالعة والهجاء إلى مجلدات في الفلسفة والعلوم ، رصت في رفوف الخزانة الثلاثة رصًا يقع بين القوضى والنظام ؛ أعدت الكتابين وأويت إلى مخدعي ، فسرعان ما استغرقني نعاس دافئ جميل ، ما كان أحلاه بعد يوم مليء بالعمل والنعاء ، وسبحت في عالم الرؤى فماذا رأيت ؟

رأيتني حاكمًا في دولة أصرّف أمور شعبها ، لعلها أن تكون أعجب ما شهدت الأرض من دول ، ولعله أن يكون أعجب ما ظهر على وجه الدهر من شعوب ! أما دولتي فمداها بناء ضخّم ذو طبقات ثلاث ، لم ألبث أن أتبين فيه خزانة الكتب ضخمت في عالم الأحلام ثم ضخمت حتى أصبحت هذا البناء الفخم الجميل ؛ وأما رعيتي فكانت بضع مئات قليلة من أسماخ لا تطمئن لها العين ، ما كدت أباشر شئونها حتى أدركت أنها كتي قد أصابها في أضغاث الأحلام هذا المسخ والتشويه ؛ فقد رأيتها كائنات حيه ليست كالتي عهدت من كائنات ، يتألف واحدها من لسان غليظ طويل في فم ضخّم بشع ،

ولكل منها جناحان بعضها يستطيع بهما الطيران وبعضها لا يستطيع؛ وأحسب أن اللسان قد غلظ فيها وطال، لأنها لم تستطيع من أول الدهر سوى بضاعة الكلام، فتطور عضو الكلام وضمرت سائر الأعضاء؛ وأعجب ما فيها أن خواطرها مكتوبة في عقد من أوراق الشجر يتدلى من عنقها، بحيث تستطيع العين رؤيتها، وهي حين تتكلم تهز من صدرها تلك الخواطير المكتوبة هزاً تتحول به من الكتابة إلى الصياح.

نظرت إلى دولتي وقلبت الرأى في رعيتي، فشاع في نفسى الأسف والأسى لسوء حالها، وكاد يقعدنى اليأس عن محاولة إصلاحها فقد خيل إلى أن فوضاها فوق كل إصلاح؛ كانت دولتي مقسمة ثلاث طبقات، عليها تسكن الطابق الأعلى، وديناها الأدنى، وأوساطها فى الوسيط؛ وقد راعى ذات يوم أن أرى أن أطيب ما تنتج البلاد من خيرات ينصرف إلى الفئة العالية وهي لا تعمل، وأما الخائلة فإلى الفئة التى تكدح وتشتى، وهي التى سفلت فى بناء الدولة حتى استقرت فى قاعها، فقلت لنفسى: لا حييت بعد اليوم فى الدولة حاكماً إذا أنا أغمضت العين على هذه النقائص والعيوب، ولن تذهب ثقافتى عبثاً، فسأهتدى بآراء المصلحين جميعاً، من مضى منهم ومن حضر، لأستأصل

من جسم شعبي كل داء دفين .

وآثرت قبل البدء فى الإصلاح أن أخالط رعيتى عن كسب وأحادثهم، لعلى أعلم كيف علامن علا، وسفل من سفل، فإن فى ذلك لبداية وهداية . فصعدت لتوئى إلى الطابق الأعلى، فإذا فئة من شعبي تتقلب فى ألوان النعيم، أسدلت من دونها الستر لتتقى مر النسيم ولفحة الضوء، أجنحتها من الخمل وأوراقها المتدلية من الحرير، وقد خط عليها ما خط بماء الذهب، فأخذت أسأل هؤلاء واحداً بعد واحد : ما صنع حتى جاز له أن يصعد هذا المرتقى؟ فأجاب أولهم : إن جواز صعوده هو أن اسمه المطبوع على صدره له رنين قوى إذا نطق به، وهو مكتوب بالخط الضخم العريض؛ فعجبت له كيف يمكن أن يكون رنين الأسماء وضخامة الحروف من أسباب العلاء! لكنه أجاب بأن تقاليد الدولة منذ عهد بعيد قد أباحت لمن يعلو صوته على سائر الأصوات أن يتسع صيته، فيأخذ من أمته مكاناً عالياً ممتازاً، ولا عبرة بما فى صياحه هذا من خطأ أو صواب ثم سألتى : ألسنت ترى — يا صاحب الجلالة — ما بين الصوت والصيت من علاقة فى اللفظ وأضاف قائلاً : إن علاقة اللفظ عند الفلاسفة دليل على روابط المعنى .. فسألت آخر، فأجاب بأن جواز صعوده هو أن جناحيه وما يتدلى

على صدره من أوراق صنعت كلها من مادة جيدة مصقولة ،
فمجببت له كيف تكون نعومة اللمس جوازاً للصعود ! فقال : إن
تقاليد الدولة منذ أقدم العصور تعنى بظواهر الأشياء دون بواطنها
لأن فيلسوفاً قديماً علمهم أن الإنسان لا يدرك من الأشياء غير
الظواهر ، وأما حقائق الأشياء فعلمها عند علام الغيوب . وسألت
ثالثاً ، فقال : إنه مطبوع في بلاد الإنجليز ، فمجببت له كيف
يمكن أن يكون مكان الطباعة بذى شأن ، مادامت الأحرف هي
الأحرف والكلام هو الكلام ! فأجاب بأن تقاليد الدولة من
أقدم عصورها تقتضى أن يكون لذلك اعتبار عند قسمة الأقدار .
وسألت رابعاً ، فقال : إنه ينتمى في نسبه إلى كاتب مشهور
معروف ؛ فمجببت كيف يمكن أن تكون النسبة وحدها كفيلاً
له بالصعود فأجاب بأن تقاليد الدولة منذ فجر تاريخها قد جرت
بأن يكون لأصحاب الأنساب في الدولة أكبر الأنصاب . وسألت
خامساً وسادساً وسابعاً ...

هبطت السلم مسرعاً لا أوى على شيء ، وأنا أوشك أن
أصبح : كلا ، لن يكون لمثل هذا العبث وجود في دولتي بعد
اليوم ... إن شيخاً في الطابق الأسفل قيل إن به مسأ من جنون
قد جاءني منذ أيام يقص على قصة الإصلاح الذي يريده لأمتي ،

فأعرضت عنه وتوليت ، وما كان ينبغي أن أفعل ، فما يدريني ؟
لعله يهدى ، فما يفصل الجنون عن النبوغ إلا حاجز رقيق ؛
وقصدت إلى الشيخ حانقاً مغضباً ، فوجدته يروح ويفدو ولا يكاد
يستقر به المكان ، فناديته : ادن مني أيها الشيخ وأعد على سمعي
ما قصصته بالأمس ، فقال : أردت لأمتك الإصلاح — يا صاحب
الجلالة — فما أعرتني أذنًا مصغية ولا قلباً واعياً والأمر هين
لا عناء فيه : أريد أن تسود في الدولة أرستقراطية العقل مكان
أرستقراطية المال وغير المال من الأعراض التي لا تمت إلى طبيعة
الإنسان في شيء ؟ فهذا الفرد وهذا وذلك ممن تنطوى صدورهم
على تفكير ناضج سليم وتتألف خواطرهم التي نقشت على صدورهم
من فلسفة وعلم رصين ، لهم من الدولة المسكان الأعلى ؛ وهذا الفرد
وهذا وذلك ممن تغلب عليهم العاطفة فينطقون بآيات من الشعر
والنثر ، لهم من الدولة المسكان الأوسط ، لأن العاطفة عندى في
منزلة دون العقل الخالص ، ثم أحشر في الطابق الأسفل من
رعيته أصحاب العقول الفارغة والصدور الخاوية ، مهما يكن حظهم
من ضخامة عنوان وجمال أوراق . فلم أجد في فعل ما أشار به الشيخ
شيئاً من العسر ، إذا استثنيت بعض نظرات ملتبهة حداد رمقى
بها أفراد الطبقة الممتازة حين أنزلتهم من الدولة أسفل سافلين .

وانتبتت بعد هذا الانقلاب مكاناً أستريح وأزهو، ولكني لم أكد آخذ من الراحة نصيباً، حتى سمعت في أرجاء الدولة ضجة وصياحاً؛ فهذا صوت شيء يتحطم، وتلك صرخة إنسان يتألم، فسرت في جسمى فشمعيرة الخوف، وأرهفت الأذن فإذا بي أتبين كلمات تنبئ بثورة الشعب، فجمدت في مكاني لا أريم حتى هدأت العاصفة، ثم طُفْتُ بأسفل الطوابق أول الأمر، فإذا بأصحاب الفكر وأرباب الأدب ممن أصابتهم الرفعة في الانقلاب الذي قمت به في تنظيم الدولة، قد أعيدوا إلى دركهم الأول، بعد أن تكسرت منهم أجنحة وقطعت السنة وتمزقت أوراق ...

فجلست محزوناً واعتمدت رأسي على كفي، وتمتمت في يأس: لم يأت بعد أوان الإصلاح لأمتي، فلا بد أن تنقضي قرون أخرى يعا فيها أصحاب الظاهر البراق ويسفل أصحاب الحق المبين واستيقظت فإذا موعد العمل قد حان، فارتديت ثيابي مسروعاً وهرولت إلى العمل مسرعاً لأرد عن نفسي عادية الأذى.

خطيب هايد بارك

[أهديها إلى من ضل سواء السبيل]

أمسكت السماء عن المطر بعد شهر كاد أن يكون المطر فيه موصولاً في لندن، فذهبت أستنشق الهواء في « هايد بارك ». وهايد بارك متنزه فسيح يقع في قلب هذه العاصمة الكبرى، له خصائص يتميز بها في أذهان عارفيه، منها هؤلاء الخطباء عند مدخله، خمسة منهم أو ستة يرتقون المنابر ليخطبوا في الدين أو السياسة أو الاجتماع من شاء أن يستمع إليهم من رواد الحديقة، فهؤلاء يتحلقون حول الخطباء تفرجاً عن أنفسهم وإزجاء لأوقات فراغهم، وما أقل في هذه الدنيا من يفرج عنك لوجه الله لا يريد منك جزاء ولا شكوراً؛ فإن أردت لنفسك لهواً وفكاهة فاقصد سوق الخطباء في هايد بارك لتقرن حماسة الخطيب باستخفاف المستمع.

قصدت الحديقة أريد الهواء النقي، ولا أريد حديث الخطباء، فقد كانت غايي غذاء الرمتين لا غذاء الرأس؛ فالرأس عندئذ كان في تحمة مما يحمل من غذاء؛ لكن ما أكثر ما ترغمتك

الظروف على غير ما تريد؛ فقد استوقفني بين الخطباء منظر عجيب :
خطيب من هؤلاء رأيته قائماً على منبره يخطب ولا من سميع ! لم
يقف أمام الرجل إنسان واحد يستمع إليه ، ومع ذلك مضى المسكين
في خطابه يرفع صوته ويخفضه ، ويشير بيمنه تارة ويسراه طوراً ،
وينحن ويستقيم ، ويضرب النضد الصغير الذي أمامه بيده ،
مقبوضة سرّة مبسوطة أخرى ! دنوت منه ووقفت إزاءه أنظر
إليه ، وما هو إلا أن طاف برأسي خاطر عجيب ، إذ خيل إلى أني
أنظر إلى نفسي في مرآة . وإنما لفرصة نادرة الوقوع أن تجد
لنفسك مرآة تصورها لك فتهديك بعد ضلال ؛ فما أهون أن
تنظر إلى وجهك في مرآتك لتصلح ما اختلط من شعرات رأسك
وتشذب ما هاش من شاربيك ؛ لكن أني لك مرآة تجلو أمام
ناظرينك ماخفي من شعاب نفسك لتصلح منها ما اعوج إن كانت
بذات عوج ، أو لترهي بها إن كانت قيمة بالإعجاب ؟ رأيت في
ذلك الخطيب مرآة لنفسه ، وأخذت دقة الصورة تزداد في عيني
جلاء ووضوحاً ، فابتسمت ثم ضحككت في نبرة مسموعة .

قال الخطيب : ما يضحكك يا صاحبي ؟

قلت : يضحكني أننا شبهان .

قال : شبهان ؟

قلت : نعم وليس الشبه في هيئة الجسم ، فأنت انجليزي
أصفر الشعر أزرق العينين أحمر البشرة ، وأنا مصري أسود الشعر
والعينين أسمر اللون ، لكننا شبهان ؛ فكلانا يبعثر في الهواء
طاقة وهبه الله إياها لينفقها في الجري والقفز والهبوط والعب ، أما
هواؤك فطلق نقي ، وأما هوائي فخيس تحده الجدران ؛ كلانا
يبدل الجهد فيذهب الجهد أدراج الرياح .

عجيب هذا الضوء الذي تلقيه تجارب الأيام على القول
المكرور المعاد ! فقد تردد العبارة الواحدة ألف مرة وتحسبك قد
فهمت معناها لأنك عرفت معاني ألفاظها كما تشرحها القواميس
فإذا بك تنطق بها مرة أخرى فتلمس فيها حياة نابضة لم تعهدها
من قبل ، فكأنما أشرق عليك منها معنى جديد ، لأنها في هذه
المرّة كانت قطعة من حياتك ، وقبساً من روحك ، ولم تكن
ألفاظاً مرصوفة يقولها الناس فيرنّ صداها بين شفقتك ؛ فكم
رددت مع الناس قولهم « لافي العير ولا في النفير » ولم أكن
أدرى أنني إنما كنت أرددها ترديد البيغاوات عن غير فهم
حي صحيح ، حتى قلتها منذ قريب فأحسست لها هزة تشيع في
وجودي ، وأدركت أنها لم تعد مثلاً يقال ، بل أصبحت جزءاً
من صميم الحياة ؛ وحدث مثل ذلك حين قلت لصاحبي الخطيب

إننا نبذل الجهد فيذهب الجهد أدراج الرياح !

رحمك الله يا « سيرفانتيز » ، ترى من ذا كنت تعنى إذ صورت لنا « دون كيشوت » يمتطى جواده الهزيل الكسيح ، ويحمل سيفه المحطم المثلوم ، ويجوب الأرض محارباً لبعده الناس فارساً من الفرسان ؟ فيأتى « دون كيشوت » إزاء طواحين الهواء ويخيل له الوهم أنها جماعة من الأعداء ، ويسل سيفه ويظل يضرب في الهواء ، ثم يغمد السيف منتفخ الأوداج من كبرياء ، لأنه فتك بالعدو وصرعه وأرداه ! من ذا كنت تعنى حين صورت لنا هذا الفارس الحالم الذى يجارب في وهمه ، وينتصر في وهمه ، والناس من حوله لا يرون حرباً ولا نصراً ؟

أرأيت يا خطيب الهواء سيارة أمسكها الوحل فأخذت عجلاتها تدور وهي في مكانها لا تتحول ؟ لو كانت هذه السيارة لتنتطق لزعمت لك أنها طوت من الأرض فراسخ وأميالا ، لأنها تحس في حرّ أنفاسها حرارة الجهاد ، وتحس عجلاتها تدور ، فهيات أن يقع في ظنها أنها تدور في غير سير إلى أمام ، إيماناً منها بأن ذلك ضد طبائع الأشياء ، وما تدري أن هذا الوحل الذى يأذن لعجلاتها أن تدور ثم يمسك جسمها عن السير هو أيضاً من طبائع الأشياء ! نحن أيها الخطيب شبهان ، كلانا رأى الهدف وأخطأ سواء

السبيل ؛ أراد لنا نحس الطالع في صباحنا أن يخذعنا المعلمون ، والمعلمون أحياناً يخذعون ، ويبشرون بما لا يؤمنون ، فأوصونا أن نجعل من النجم غايقتنا ، فأبت علينا الأمانة البلاء إلا أن نكدّ ونكدح لنبلغ النجم . وفاتقتنا الحيلة التى يدركها الأوف إدراك البداة في غير عسر ولا عناء ، وهى أن نلتمس النجم في صورته على صفحة الماء ، وأولو الأمر لا يفرقون بين النجم وصورته ، فكلاهما في أعينهم لامع لألاء ؛ وبربك لا تقل إننا إذ نروم النجم في سمائه تستقيم منا الظهور ، وتشرئب الأعناق ، وتشمخ الأنوف ، أما إن أردنا الصورة فلا بد من « انحناء » ، فتلك حكمة القدماء ، والحكمة إنما تسير وسائل النقل في تطورها ، فلا ينبغى أن تكون حكمة الطائرة مثل حكمة « الحمار » .

قال « مكياڤلى » لأميره ناصحاً : ليس المهم أن تكون رحيماً بشعبك ، إنما المهم أن يقال عنك إنك رحيم ، فاقس ما شئت ، وابطش بمن شئت ، لكن ليكن لك في ذلك فن يخذع الناس عن حقيقة نفسك ، فإذا أنت في ظنهم الأمير الذى يحنو على البائس ويعطف على المحروم ؛ ألقى مكياڤلى درسه على أميره ؛ وكان درساً في سياسة الملك ، فلققه من فمه أصحاب الفطنة وجعلوه دستور الحياة ؛ فليس المهم أن تكون ذا علم ، وإنما المهم أن يمدك الناس

بين العلماء ، وكم من رجل رأيت يتربع على كرسيه رزينارصينا
وعلى وجهه مخايل العلم والحكمة ، وقد علّق فوق رأسه قيثارة فحمة
ضخمة مشدودة الأوتار ؛ فتأني إلهة الشهرة فتربّت على كتفه
وتمضى فخوراً بابنها النجيب ، ولاتنى تنشر ذكره في طول البلاد
وعرضها ، لأنه « لو » عزف كان خير العازفين ؛ فلئن جمدت
الألحان على أوتار قيثارته الآن ، فما أيسر عليه أن يذيعها نفا
شجيا طروبا إن أراد ؛ وقد ضيّقتُ بففلتها ذات يوم فصحتُ
بها : يا إلهة الشهرة لاتصدقهم ، إنهم لايعرفون لأنهم لايعرفون
لكنها ازورّت عنى وأدارت إلى قولى أذنا صماء ؛ وما أكثر
ما تُخرج أولئك الإلهاتُ صدرى ، لأنهن ينخدعن كما
ينخدع البشر !

نحن أيها الخطيب شبهان ، كلانا يبذل الجهد في غير موضعه
فيذهب الجهد أدراج الرياح ؛ القيمة كلها في اختيار الموضع الملائم
لجهدك المبذول ؛ فالمسافر الذى كان يقطع الصحراء جاعنا فوجد
كنزاً من الجواهر ، لم يعدل عنده هذا الكنز النفيس زغيفا من
الخبز ! لم تعد للجوهر نفاسته لأنه أخطأ المكان الصحيح ؛
تسعة أعشار الرزق في التجارة ، والتجارة هى أن تضع السلمة في
مكان تباع فيه ؛ إن عبارة واحدة من خطبتك تلقيها في مجلس

النواب خير من مائة ألف خطبة تلقيها في « هايد بارك » ؛
وكتاب واحد أقرؤه أنا في « هايد بارك » — أفهمه أو لا أفهمه
— خير من مائة ألف كتاب أكتبه في حديقة قصر النيل .

قال : وما قصر النيل ؟

قلت : حديقة في القاهرة ، وطى الحبيب .

قال : ولماذا ؟

قلت : لا تسلى لماذا ؛ لماذا يكون الماء في النهر ماء فإذا

انتقل إلى خزان القاطرة تحوّل بخاراً يشد العربات ؟

قال : لأنه جاور نار الأتون فاستفاد .

قلت : وقارئ الكتاب في هايد بارك ربما استفاد لأنه جاور

العقد الحسان اللأى ليس لمن أضراب في قصر النيل ؛ أو ربما

استفاد لأنه استمع إلى خطباء هذا المكان ، أو من يدري ؟ لعل

مذهب التفاوت بين الأجناس يلعب هنا لعبته ؛ فلما ساد اليونان

كانوا هم الأحرار وغيرهم العبيد ، ولما ساد العرب كانوا هم الأشراف

وغيرهم عجم ، ولما ساد الآريون حقتُ اللعنة على أبناء سام ؛

أفلا يجوز أن يكون أصحاب السلطان من فصيلة هايد بارك ،

فكانوا هم العلماء وغيرهم في الجهالة يعمهون ؟ وبربك لاتقل إنه

لا ينبغي أن يكون لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى ، فتلك
حكمة القدماء .

العبرة يا صديقي في اختيار المكان الصحيح ، فالوسخُ وسَخُ
لأنه مادةٌ أخطأت مكانها ، ولو اختارت مكانها الملائم لشرُفت
كما تشرُفُ سائر المواد ؛ فهذا الغبار على منظاري قذارة يجب أن
ترال ، ولو اختار الغبار وجه الأرض مكانا لا اختار موضعه وما
عرض نفسه لألوان الهوان ؛ وقل مثل ذلك في الرجال ، فزَيِّدُ
في جماعة من الناس مجلبة للصغار ، ولو انتقل زيد إلى حيث ينبغي
له أن يكون لأصبح لأقرانه مدعاة للفخار .

على أن القَدَّرَ قد يكون له فضل عظيم ، فلوح الزجاج إن
خلا من الغبار خفي عن العيون فصَدَمَهُ السائرون وهشموه حطيا ،
وإن أردت له أن يُرَى فلا مندوحة لك عن شيء من العكر فيه ؛
إذ ليس من حَقِّك أن تكلف الناس ما لا يطيقون ، فلا بصارهم
حدودُ فرضتها عليهم الطبيعةُ فرضا ليس لهم عنها محيص ؛ فامزج
صفاءك بالعكر ، ولا تقل إن الصفاء خير من القَدَّرَ ، فتلك
حكمة القدماء .

جنة العبيط

أما العبيط فهو أنا ، وأما جنتي فهي أحلام نسجتها على سر
الأعوام عريشة ظليلة ، تهب فيها النسائم عليلة بليلة ، فإذا ما خطوت
عنها خطوة إلى يمين أو شمال أو أمام أو وراء ، ولفحتني الشمس
بوقدتها الكاوية ، عدت إلى جنتي ، أنعم فيها بعزاتي ، كأنما أنا
الصقر الهرم ، تغفو عيناه ، فيتوهم أن بغاث الطير تحشاه ، ويفتح
عينيه ، فإذا بغاث الطير تفرى جناحيه ، ويعود فيغفو ، لينعم في
غفوته بجلاوة غفلته .

أنا في جنتي السمح الكريم الذي ورث الجود عن آباء
وجدود ؛ فمن سواي كان أبوه يذبح الجمل والناقة ليطعم كل ذي
مسغبة وفاقة ؛ من سواي إلى حاتم ينتمي ، وبهذا المنصر الكريم
يحتمي ؟ وهل كانت صفات آبائي وأجدادي لتذهب مع الهواء
هباء ، أم هي تجري في العروق مع الدماء دماء ؟ هأنذا أحنو على
البائس عطفًا وإن كنت لا أعطيه ؛ وأذوب على المصاب أمي
وإن كنت لا أواسيه ؛ وتبت يدا حاسد يقول إن أصحاب الحاجة
عندى يستجدون ولا عطاء ، والمعوزين أ كففهم تنقبض على هواء ،
فقلب عطوف خير للفقير من قرش إنفاقه سريع ، وفؤاد ذائب

أبقي له من عون لا يلبث أن يضيع ؛ إني أعوذ بالله من إنسان يفهم الإحسان بلغة القرش والمليم ؛ تلك لعمري مادية طغت موجتها على العالم كله ، ولولا رحمة من ربي ، ورشاد من قادتي ، لكنت اليوم في غمرتها من المفرقين ؛ لقد أقر العالم حول جنتي فلا عطف ولا عاطفة ، واستحالت فيه القلوب نيكلا ونحاسا تعرفها بالزنين لأنها لم تعد من لحم ودم ! أهكذا يُقَوَّم كل شيء بالمال حتى إحسان المحسن وعطاء الكريم ؟ فالقرش والمليم هو معنى الإحسان في الغرب الذميم ، الذي غلظت فيه الأكباد ، كأنما قدت من صخر جماد . كم جامعة عندهم أنشأها ترى ؟ وم كم دارا أعداها للفقير غنى ؟ كم منهم يلبي النداء إذا ما دعا الداعي بالعطاء ؟ لا ، بل إن هذا الغرب المنكود ، ليسير إلى هاوية ليس لها من قرار إذ هو يسعى إلى محو الفقر محوا ، حتى لا يكون لفضيلة الإحسان عنده موضع ! فاللهم إني أحمدك أن رضيت لي الإسلام ديناً ، وجعلت لي الإحسان ديناً .

أنا في جنتي العالم العالمة ، والحبر الفهامة ؛ أقرأ الكف وأحسب النجوم ، فلأنبيء بما كان وما يكون ؛ أفسر الأحلام فلا أخطئ التفسير ، وأعبر عن الرؤيا فأحسن التعبير ، لكل رمز معنى أعلمه ، ولكل لفظ مغزى أفهمه ؛ استفسرني ذات يوم حالم

فقال : رأيت — اللهم اجعل خيراً ما رأيت — رأيتني أنظر إلى كفي ، فيغيظني من الأصبع الوسطى طولها فوق أخواتها ، ولا أحتمل الفيظ ، فأتي من مكتبتني بمبرة مرهفة ماضية ، وأجد منها ما طال ، وألقى بالجزء المبتور في النار ؛ وما هو إلا أن أرى شبعا يخفي يخرج من بين السنة الذهب ، كله أصابع ، أصابع في كتفيه ، وأصابع في جنبه . وأصابع في قدميه وأصابع من رأسه ومن بطنه ومن ظهره ؛ والأصابع كلها من ذوات الأظفار ، حتى لكانها الخالب ، أخذت تنقبض وتتلاوى ، وتنبسطن وتتحوى ، تريد أن تنال مني لتفتك بي ؛ فتملكتني الفزع ، والرعب والجزع ، وكلما اقتربت مني تهقرت حتى بلغت الجدار ، ولم يعد بعد ذلك مهرب ولا فرار ؛ ثم رأيت دماً تسيل دفاقة من إصبعي الجريح ، فصحت وصحوت .

فأطرقت قليلاً ثم أجبته قائلاً : لقد أضلك الشيطان الرجيم فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وكفارتك صيام عام وإطعام ألف مسكين ؛ ولولا أننا نريد بك اليسر ولا نريد العسر لكان جزاؤك ما لاقى « برو مشيوس » عند اليونان فيما تروى الأساطير فقد أراد الآلهة أن يستأثروا بالعلم ونوره ، وأراد « برو مشيوس » أن يهب الإنسان قبسا منه ، فسرق من الآلهة شملة العرفان ليهدى

بها البشر . وغضب الآلهة لفعلته ، فشدوه على جلود صخر فوق
الجبل ، وأطلقوا عليه سباع الطير تنهش كبده كل يوم مرة ،
فكلما انتهشت له كبداً ، بدلته الآلهة كبداً أخرى . فأصابع كفك
هي الناس من حولك تفاوتت أقدارهم وتباينت أرزاقهم بمشيئة
ربك الذي يعطى من يشاء ويحرم من يشاء بغير حساب ؛ والمبرة
التي أتيت بها من مكتبتك رمز لضلالك بما قرأت ، كأنك
« فاوست » غاص في العلم فأضله العلم ضلالاً بعيداً ؛ وكنت
بمثابة من باع للشيطان طمأنينة نفسه لقاء لغو فارغ لا يسمن ولا
يفنى من جوع ؛ ثم حدثتك النفس الأمارة بالسوء أن تعدل فيما
خلق الله وتبدل ، فكان جزاؤك عذاب الدارين ، فعذابك في
الدنيا دماء تسيل رمزا لما أنت ملاقيه من تعذيب في النفس أوفى
الجسم أو فيهما معا ، وعذابك في الآخرة نار تصلاها وبئس القرار
وسيطل الوحش ذو الأصابع ماثلاً أبداً أمام عينيك شاهداً عليك
بما أحدثته للعباد من فساد ، في عالم ليس في الإمكان أن يكون
أبدع مما كان ، وأما الجدار الذي سد عليك طريق الفرار ،
فمعناه أن عذابك آت لا ريب فيه ، إلا أن تدعو ربك بالمغفرة
لعل ربك أن يستجيب لك الدعاء .
أنا في جنتي الحارس للفضيلة أرهاها من كل عدوان ، لا أغض

الطرف عن مجانة المجان ، والعالم حول جنتي يفوص إلى أذنيه
في خلاعة وإفك ورذيلة ومجون ؛ دعهم يطيروا في الهواء ويفوصوا
تحت الماء ، فلا غناء في علم ولا خير في حياة بغير فضيلة ، دعهم
يحلقوا فوق رؤوسنا طيراً أبابيل ترمينا بمجارة من سجيل ، فليس
الموت في رداء الفضيلة إلا الخلود ؛ إني والله لأشفق على هؤلاء
المساكين ، جارت بهم السبيل فلا دنيا ولا دين ، أندرى ما معنى
الفضيلة عند هؤلاء المجانين ؟ معناها كل شيء إلا الفضيلة ! فالنساء
عندهم يخالطن الرجال ، والنساء عندهم يراقصن الرجال ، ثم النساء
عندهم يعملن مع الرجال ، وهن يقاتلن مع الرجال ! أرايت أفحش
من هذا الإفك إفكا ! وأقبح من هذا المجون مجونا ؟ حدثني
صديق أنه رأى هناك ذات يوم بعينيه ، في مكان واحد من
دكان واحد ، قبة وقُبعا (وأراد بالقُبَع قبة الرجل تمييزاً للذكر
من الأنثى) رأها معروضين لا يسترهما عن أنظار المارة إلا لوح
من الزجاج يشف للمارة عما وراءه ، وأعجب العجب أن علامة
واحدة من علامات الحياء والحجل لم تبد على رجل منهم أو امرأة ،
وبعد ، فهم يتحدثون عن الفضيلة كما يتحدث ، لكنها تعنى عندهم
شيئاً مجيباً ؛ فإن خالطت هؤلاء القوم ، فينبغي أن تكون منهم
على حذر ، لأنهم يسمون الأشياء بغير أسمائها ، والذائل والفضائل

عندهم قد يلبس بعضها أثواب بعض ؛ سل حكيمهم : ما الفضيلة
يامولانا في بلادكم ؟ يجيبك حكيمهم : إنها في اختلاط الحابل
بالنابل ! أى والله ، لا يختلف عندهم رجل أمسك صيده بالحبال
عن رجل أمسكه بالنبال ؛ ترى هؤلاء وأولئك خليطاً واحداً .
« خليط » هذه هي الكلمة التي أريد ، فهيات أن تعرف في
أرضهم أين الرعاة وأين الغنم ، فكلامهم — إن شئت — راع ،
وإن شئت فكلامهم غنم ؛ في هذا الخليط يقرب الإنسان من
الإنسان ، وقد يكون أحد الإنسانين ذا لحية وشارب ، وقد يكون
الأخر حليقاً ناعم الخدين أملس الصدغين ، وقد يكون في اقترابهما
أن يبخز الأول الثانى فيدميه ؛ لكنه خليط وفوضى ، وإن يصلح
الناس فوضى لا سراة لهم ، ولا سراة إذا « عمالمهم » سادوا .

في هذا الخليط يتصايح الناس بما يجيش في صدورهم ، لا يكف
أحد أحداً ، لأن أحداً ليس له سلطان على أحد ، كأنهم ذباب
يطن ، لا تملك ذبابة منها أن تسكت عن الطنين ذبابة ؛ والمطبعة
فاغرة فاتها تلتقم من الأقلام حنظلها وشهدها ، ومن الأفواه
حلوها ومرها ، لتخرجه للناس صحفاً وكتباً ؛ وما ظنك بقوم
يأذنون لرجل من أعلام كُتّابهم أن يقول في كتاب مطبوع :
إن الفتيان والفتيات ، في المعاهد والجامعات ، ينبغي أن تشرف

الدولة على تنظيم غرائزهم ، فتدبر لهم لقاء لا ينسل ؛ إن الدولة التي
تدراً عن أهلها السموم ، من واجبها أن تكتم هذه الأفواه ، لكنهم
قوم لا يعقلون .

في هذا الخليط لا يؤمن الناس بأن الليل لا ينبغي له أن يسبق
النهار ، ولا الشمس أن تدرك القمر ، وأن كلا في فلك يسبحون ؛
فهم يريدون لأجرام السماء كلها أن تسبح في فلك واحد ، ثم
تختلف بعد ذلك أوضاعها وأشكالها ما شاءت أن تختلف ؛ وذلك
الفلك الواحد عندهم هو صفة الإنسانية التي تجعل الإنسان شيئاً
غير الكلب والحمار ؛ فكن عندهم فقيراً ماشئاً ، أو كن عندهم
غنياً ماشئاً ، لكنك إنسان . كن عندهم جاهلاً ماشئاً ، أو
كن عندهم عالماً ماشئاً ، لكنك إنسان . كن عندهم ضعيفاً
ماشئاً ، أو كن عندهم قوياً ماشئاً ، لكنك إنسان . كن
عندهم زارعاً أو صانعاً ، فأنت إنسان . كن عندهم خادماً أو مخدوماً
وأنت في كلتا الحالين إنسان ؛ كأنهم جماعة من النمل لا تختلف
فيها نملة عن نملة ! ... وأقرن فوضاهم هذه بالنظام في جنتي ،
فأحمد الله على سلامتي ؛ أرادت زوجتي في جنتي أن تستخدم
خادمة ، فسألتها :

— اسمك ماذا ؟

— بثينة يا سيدتى .

لكن زوجتى كانت بثينة كذلك ، فأبى عليها حب النظام
إلا أن تفرق بين الأسماء حتى لا يختلط خادم بمخدوم . وقالت فى
نبرة كلها سمرارة ، ونظرة تشع منها الحرارة :

— ستكونين منذ اليوم زينب ، أنفهمين ؟

— حاضر ، سيدتى .

وبثينة بالطبع لم تفهم لماذا تكون منذ اليوم زينب ، لأنها
جاهلة صغيرة ، لم تفهم بعد ما الفضيلة وما الرذيلة

كلا ! لا أريد لهذا الغرب اللعين أن ينفذ إلى جنتى ، ولا
لمدنية الغرب أن تفسد مدنيتى ؛ وإنه لتغيبنى عن سيارته حمارتى ،
وتكفينى دون طيارته بقلتى ، مادمت عن رذيلته فى حصن
من فضيلتى .

لكن لكل جنة إبليسها ، وإبليس جنتى وسواس خناس ،
ما ينفك يوسوس فى صدرى هاتفا : يا ويح نفسك ، لقد ضلّت
ضلالين ، ضلالا بففلتها ، وضلالا بتضليل قادتها .

فى سوق البغال

قد كنت أعلم حقا وصدقا ويقينا أن الليالى من الزمان
حبالى يلدن كل عجيبية ، لكننى لم أكن أعلم أن عجائب الزمان
قد تهرأ بالخيال ، ما شطح منه وما جمح ، حتى سمعت أن بغلا
يحتج ويحاج كما يفعل عباد الله من بنى الإنسان .

فلقد حدثنى صديق انجليزى ، كان ضابطا فى البحرية إبان
الحرب ، عن زميل له طوحت به خطوط البحر إلى جزيرة نائية
فى عرض المحيط الهادى ، لم يزد سكانها فيما رأى عن بضع مئات
اختلفت طبائعهم عن طبائعه ، ولسانهم عن لسانه ، لكنه كان فى
خبرته بالحياة فسيح الأفق بحيث لم يدعش لاختلاف الشعوب فى
طرائق العيش وأساليب التفكير والتعبير ، فالناس فى رأيه ناس إن
ايضت جلودهم أو اقتنمت ، والناس ناس إن دارت أسنتهم فى
الأشداق من اليسار إلى اليمين أو دارت من اليمين إلى اليسار ؛
لكن الذى أدهشه حقا من أهل الجزيرة سداجة بلغت بهم فى
سرعة التصديق حدًّا لم يأنفه فيما شهد من شعوب الأرض طرفًا ،
فهم يتناقلون رواية خلفا عن سلف يؤمنون بصدقها لإيمانهم

بصدق روايتها ، مع أنها تنافي أوضاع الطبيعة كلها ، أو قل إنها تنافي ما ألف ذلك الزميل من هذه الأوضاع .

فقد روى له هنالك راوٍ أنه منذ مائة عام عرضت في ساحة السوق من الجزيرة جماعة من البغال للبيع والشراء حتى جاء بها من أرض في شمالي إفريقيا لعلها بقعة من صحرائها لم يعرف أهل الجزيرة كيف يسمونها ؛ فأخذ الأمر يجري مجراه المألوف عند القوم هناك كلما تم بينهم بيع أو شراء ؛ عرضت البغال وجاء الشارون ، فلم يكن بد من أن تنزع عن ظهورها الشرج ، ومن أفواها اللجُم ، لتبدو عارية من كل زينة ؛ وأخذ الخبراء يجسسون عضلاتها هنا ، ويختبرون مفاصلها هناك ، ويفتحون أفواها لينظروا إلى أعماها في أسنانها ، ثم يركبونها ويدورون بها في ساحة السوق دورة أو دورتين ، ليروا أمي في جريها من العاديات أم الزاحفات ، خفاف الحركة هي أم ثقالها ، ويختبرون قدرتها على الحمل والجر بشتي الوسائل ، ليثق الشارون أنهم لن ينفقوا ما لهم عبثا إن أنفقوه ثمنا لهذه البغال .

لكن البغال فيما يظهر لم تعجبها هذه الطريقة في التقويم والتسويم ، لأنها تختلف عما ألفته في بلادها ؛ وهنا كانت المعجزة التي أدهشت صديقي وأدهشتني وستدهش كل قارئ وسامع ،

وهي أن ثارت البغال على سيدها وشقت عضا الطاعة على نحو يشبه جداً ما يصنعه البشر إذا غضبت منهم طائفة لأمر أو أعلنت عصيانها ، فلم تكن ثورة البغال جموحا أو شموسا ، كلا ولا رفسا وركلا ، بل كانت احتجاجا يقوم على علل وأسباب ، أشبهوا فيه الأدميين لولا خلل في المنطق قل أن يزل فيه الأدميون ؛ أقول لولا هذا الخلل في طريقة التفكير لخلتها في ثورتها جماعة من البشر سحرها ساحر ممن جاءتنا أنباؤهم في كتب الأقدمين ، فاستحالت بغالا وما هي بالبغال ، أو تمصت أرواحها أجساد البغال فبقي لها من صفاتها الأولى شيء وزال عنها شيء .

أوشكت عملية الجس والفحص أن تنتهي بتاجر البغال أن يضع في أسفل سلم التقدير بغلا هز يلا ضئيلا رخو العود تلين عضلاته لكل غامز ، فإن جرى تعثر ، وإن حُمل على ظهره هوى ؛ لكن سرعان ما أشار هذا البغل الهزيل إلى سائر البغال فانتبذت ركنًا من ساحة السوق ، تتبادل الرأي والشورى ، فإن لم تدهش لبغال تجادل وتقاول ، فادهش لأن تكون الزعامة لبغل لم يكن أضخمها حجما ولا أروعها شكلا أو أسرعها حركة ؛ وأغلب الظن أن قد كانت له صفات رآها البغال ولم تدر كها أعين البشر !

قال البغل الزعيم لزملائه : ليس الرأى عندى أن نترك القوم يتحكّمون فى أقدارنا كما شاءت لهم أهواؤهم ، وإنهم لعلّى ضلال ، فقد أراد الله لنا أن نكون بغالا ، والله حكّمته فيما أراد ، ثم شاء لنا أن نكون مركبًا للإنسان وأداة لحمل أثقاله ، ولسنا على هذا القضاء المحتوم بثأرين ، فالدنيا تبادل وتعاوّن ، نحن نحمله وأثقاله ، وهو يعدّ لنا المأوى وينبت الغذاء ، لكن الذى لا ينبغى أن نلين له هو هذا الظلم والحيف والإجحاف ؛ فما هكذا يكون تقويم البغال ، ولو تركناهم فى ذلك وشأنهم اضطربت أوضاعنا ، فعلاً أسفلنا وسفل أعلانا ، وقد خلقنا الله درجات بعضها فوق بعض ، ومن الجحود بل من الكفر بنعمة الله أن نسوى بين هذه المنازل المختلفة ، أو نغيّر فيها ونبدّل ؛ فهل أنوب عنكم لدى صاحب الأمر فأحتج لكم ، فإما أقام للمدل ميزانه ، وإما ثورة منا وعصيان ؟

فاجتمع رأى البغال على أن يبايعوا ذلك البغل الزعيم .

تقدم كبير البغال وفى أثره الزملاء ، والناس إزاء ذلك كله مفعورة أفواههم من عجب ، مفتوحة أعينهم من رعب وخوف ؛ فهم يؤمنون بالمعجزات الخوارق التى لا تجرى على سنن الطبيعة ،

على شريطة أن تكون تلك المعجزات رواية تروى ، لا حدثًا يقع منهم على مرأى ومسمع .

قال البغل الزعيم لصاحب الأمر : لك أن تصنع بنا ما شئت فى حدود العدل ، وليس عدلاً أن يكون هذا أساس التقويم ، لقد ترعّم عنا اللّجُم والسروج ، فاذا أقيمت لنا بما تتم به المفاضلة بين الجيد والردىء ؟ فما بغلٌ بغير سرجه ولجامه ؟ وفيم هذا الجس فى عضلاتنا ، وهذا الإرهاق كله فى فخص أجسادنا ؟ إن ذلك بدع لم نعتده فى بلادنا .

ارتعش صاحب الأمر من فرّق ، وأجاب وقلبه فى حلقة مرعا : لست أرى فى ذلك بدعا فتلك سبيلنا فى التقدير ، الشئء عندنا قيمته فيما يصنعه ، فالطيب طيب بمقدار ما يطب للمرضى ، لا بسماعته التى يلفها حول عنقه ، والحذاء حذاء بما يجسد من صناعة الأحذية لا بالغطاء الجلدى على ركبتيه ، والكلب السلوقى ممتاز لما يصنع فى حلبة الصيد لا بطوقه البراق ، والسيف بتار محده لا بغمده ، فأى عجب فى أن يكون البغل بغلا بقوته وسرعته لا بسرجه ولجامه ؟

فأجاب كبير البغال : إنكم فى هذا البلد تنخدعون بحقائق الأشياء ، وإنكم فى هذا لعلّى ضلال مبين ، الشمس فى حقيقتها

كتلة ضخمة مهلهلة من غاز مشتعل ، لكنها عند من يعقل قرص صغير مستدير ، لأنها تبدو لعينه قرصاً صغيراً مستديراً ، والقمر في حقيقته جسم معتم ، لكنه عند من يفهم سراج منير ، لأنه يبدو لعينه سراجاً منيراً الطبيعة كلها بإنسانها وحيوانها ظواهر ومظاهر ، فلماذا تشذ عندكم البغال في تسويمها

فسأل التاجر : كيف إذا يسوم البغال في بلادكم ؟

فقال البغل الزعيم : في بلادنا لا الزبد يذهب جفاءً ولا ما ينفع الناس يمكث في الأرض ، فليست نخدعنا الحقائق عن إدراك الظواهر . ولا يزيغ اللباب أبصارنا عن رؤية القشور ، فلنا في تسويم البغال وسائل شتى ، أكثرها شيوعاً أن تتناسب قيمة البغل مع قيمة راكبه صعوداً وهبوطاً ، فليس البغل يمتطبه الغنى في حريره ونضاره ، كالبغل يركبه الفقير في هلاله وأسماله ، وليس البغل يخنال على صهوته صاحب الحول والطول ، كالبغل يعلوه من ليست له سطوة وسلطان ؛ وقد تعلو قيمة البغل لأن أباة كان مشدوداً إلى عربة أمير أو وزير ، فتكتسب العربة هبة من هبة الراكب ، ويستمد البغل الوالد قيمة من قيمة العربة ، ثم يأتي البغل الولد فيزداد قدراً لازدياد قدر أبيه .

ليس هذا المعيار في المفاضلة والتسويم بهين ولا ميسور ، ففيه

من الدقة ما يخفى على غير الخبير ؛ إذ قد تغمض الفوارق بين الراكبين أحياناً ، حتى ليعتذر على مثلك ومثلي أن يعلم في يقين أيّ الراكبين أرجح مثقالاً ، ليكون بغله أعلى منزلة ومقداراً . وكم من بغل أخطأ في ذلك الحساب فهوى نجمه وكان يحسبه إلى صعود ؛ لهذا نشأت بيننا طائفة من الخبراء مهمتها أن توازن بين أقدار الراكبين ليعتدل بذلك ميزان التسمير بين البغال ، وإنك لتدهش أن ترى حساب الخبراء قد يدق ويدق حتى يصبح معادلة جبرية يحتاج فك رموزها إلى صرمان طويل ، خذ لذلك مثالا :

أيّ الراكبين أعز سلطاناً ، راكب سطوته في قومه وسط بين الضعف والقوة لكنها سطوة تدوم وتتصل ، أم راكب جبار مكسح غير أن قوته تظهر آناً وتختفي آناً ؛ فلقد رأيت في ذلك بغلين اقتتلا أيهما أقوى سنداً وأعز ظهيراً ، أحدهما يقع راكبه في الناس بين وبين ولكن قوته موصولة الحلقات لا تزول ، والثاني راكبه يسطع ضوءه ويخبو كصباح النار في الليلة الظلماء ، فإن سطع خطف بريقه الأبصار ، ولم يكن هذا الراكب في مجده حين اعترك البغلان ؛ قال البغل الأول لزميله : أنا أغل منك راكباً وأقوى مؤيداً ، لأن نفوذاً وسطاً خير من لانفوذ . فأجاب البغل

الثاني قائلا : إن الفردوس المفقود يرجي له يوما أن يعود ، ولا يخذعناك الركود القائم ، فكم من نهوض يأتي بعد ركود ؛ وللجبروت الفعال لما يريد — يظهر ويختفي — خير ألف مرة من نفوذ يدوم هينا لنا . ومضى البغلان في الجدل ، لم يدريا كيف يفتح الخلاف بينهما بغير خبير ، وقصدا إلى الخبير فأفتاهما بأن الحكم في مثل ذلك الأمر وسيلته العد والحساب ، فعلمنا أن نعدّ من زادت قيمته في الأسواق من بغال الصنف الأول ، ومن زادت قيمته من بغال الصنف الثاني ، والرجحان لما تكون في جانبه السكثرة العددية ، فإن دلت الأرقام على أن البغال التي ارتفع سعرها بسند من الظهراء الأوساط الدائمين أكثر عدداً من التي ارتفع سعرها بسند من الظهراء الأقوياء المتقطعين ، كان الحكم للأول ، وإن كان العكس فالحكم للثاني ؛ وإن لم تخفى الذاكرة كان الرجحان في هذه المشكلة للبغل الثاني ؛ إذ أثبت الإحصاء أن التيار القوي المتقطع يدفع الطافي دفعات أقوى وأبعد من التيار اللين وإن اتصل ، ودّع عنك بغلا ليس لظهره راكب ، فذلك بين القوم سخرية الساخرين .

ووسيلة أخرى لتسعير البغال عندنا : أن ينظر إلى نوع المداود ومكانها ، بغض النظر عما تحويه تلك المداود من غذاء ،

أحنطة هو أم شعير ، فبغل غلا سعراً وعلا قدرأ لأنه أكل من مذود في بلد بعيد ، فالمذود في هذه الحالة يكتسب قيمة من قيمة المكان الذي وضع فيه ، ثم يكتسب البغل قيمة من قيمة مذوده الذي ربط إليه حيناً . وإني لأذكر في ذلك أيضا أن بغلين اختلفا ذات يوم في قدريهما أيهما أفوم ؟ أما أحدهما فاغذى من مذود في بلاده ؛ وأما الثاني فأرسلوه إلى بلد بعيد ليعلفوه ؛ ولو عاد مليء الجوف لما كان بينهما خلاف ، لكنه فيما روى عنه وما ثبت بالفحص الدقيق ، لم يأكل هنالك شيئا إما لخلاء مذوده وإما لمرض في جوفه ، وارتد إلينا خالي الأمعاء خاوي الأحشاء . ومهما يكن من أمر فقد اختلف البغلان واستفسرا خبيراً ، لكن الأمر هذه المرة لم يحتج إلى عدّ وتقدير ، فواضح لكل ذى بصر أنه بالمذود ، لا بالغذاء يكون التسويم والتسعير ، فإن أردت أن تسوّم بغلا فلا تسئل ماذا أكل بل قل أين أكل ، فإذا علمت أنه أكل من مذود في واق الواق بينك وبينه المحيطات والبحار والقيافي والقفار ، فذاك بغل متين مكين . أما إن علمت أنه أكل في حقل أبيه ، لم يشرق ولم يغرب عن أرضه وذويه ، فأهون به بغلا عند بائعه وشاريه ، ثمّنه بنحو درهم معدودة .

وطريقة ثالثة في تقويم البغال : قدرتها على الرفس ، فأقواها

رفسا أرقاها مقاما لأنه أصلحها في تنازع البقاء ، وأحسبك لو سئلت في هذا لأجبت بهرائك الذي فُهِتَ به منذ حين ، زاعما أن البغال لم تستخدم لترفس إنما استخدمت لتحمل الأثقال ، فأعْرَضَها ظهراً وأقواها عضلا هو أجدرها بالصعود في أسواق الشراء ؛ لكن ذلك تفكير ملتوٍ لا نسيغه في بلادنا ، فقد خلق الله البغال بالظهور والحوافر ، وليس سوى التجربة وحدها أن يقول هل يكون البغل بغلا بظهره أو بحوافره ، فإن كانت الحوافر أنجح وسيلة وأقصر طريقا ، كانت ميزانا عادلا للمفاضلة بين البغال .

على أننا نستخدم كذلك وسيلتكم في جس العضلات واختبار المفاصل ، لكننا نقصرها على الطبقة الدنيا من البغال ، فالدنيا منا لا السنى هو الذى يتمتن امتحانا قاسيا قبل أن يدفع من ثمنه قرش واحد ؛ فالفرق بيننا وبينكم هو أننا نفرق بين البغال في طريقة التسعير وأتم لا نفرقون .

قال الرجل : إن كان هذا تسويمكم للبغال ، فكيف تسويمكم للرجال ؟

فقال البغل : ليس في بلادنا كبير فرق بين الرجال والبغال .

بيضة الفيل

قال الشيخ : الفيلة تلد ولا تبيض — والمشكلة المراد حلها هي هذه : لو كانت الفيلة لتبيض ، فإذا يكون لون بيضتها ؟ في الجواب عن هذا السؤال اختلف العلماء ؛ يقول عمارة بن الحارث ابن عمارة تكون بيضاء ، واستدل على صحة قوله بدليل من القياس ودليل من اللغة ؛ أما دليل القياس فهو أن كافة مخلوقات الله التي تبيض بيضها أبيض ، وليس في طبيعة الفيل ما يدل على أنه لو باض أخذت بيضته لونا آخر غير البياض ؛ فإذا اختلف الفيل عن غيره من الحيوان فذلك في حجمه وقوته ونابه ، وهذه صفات كلها لا تستلزم في البيضة لونا غير البياض ، فقد يكون الحيوان صغيراً كالذبابة أو كبيراً كالنعامة ، قويا كالعقاب أو ضعيفا كالجمامة ، بناب كالتمساح أو بغيره كالذجاجة ، والبيضة هي في لونها بيضاء لا تتغير ؛ ومما يزيد هذه الحجة وزنا ورجحانا هو أن الخلائق تجرى على اطراد وتشابه ، فالكواكب متشابهة والبحار متشابهة والطيور متشابهة والحيوان متشابه ؛ فلو قيل مثلا إن حيوانا جديداً سيولد بمد أنف عام ، جاز لنا أن نحكم في ترجيح يقرب من اليقين بأنه سيكون ذا أذنين وأنف واحد وعينين ؛ وعلى هذا القياس

نفسه نحكم بالبياض على بيضة الفيل لوباض . وأما دليل اللغة فهو أن البيضة مشتقة من البياض ، وإذا فالبياض أصل والبيضة فرع منه ، ولا يعقل أن يتفرع عن البياض حمرة أو زرقة ، لأن الفرع شبيه دائماً بأصله ، ولذلك قيل هذا الشبل من ذاك الأسد . ثم استطرده عماره فتساءل عن حجم بيضة الفيل ، وأجاب بأنها تكون قدر بيضة النعامة عشرين مرة ، لا لأن الفيل يكبر النعامة حجماً بهذا القدر كله ، بل لأنه في قوته يوازي عشرين نعامة ، والأساس في حجم البيضة هو قوة الحيوان البائض لا حجمه فتصغر بيضة الحيوان أو تكبر بمقدار ما هو قوى أو ضعيف ، لا بمقدار ما هو صغير أو كبير ، على خلاف الرأى الشائع بين الناس ، وقد أيد عماره قوله هذا بأمثلة ساقها تدل على أن الحيوان ربما كان كبيراً وباض بيضاً صغيراً ، أو كان صغيراً وباض بيضاً كبيراً .

ثم تساءل عماره أيضاً : هل كانت طبيعة الفيل لتتغير لو باض ، فيكون ذا جناحين ليتخذ طبيعة الطير ؟ وأجاب بأنه ليس في نواميس الكون ما يستلزم هذا الانقلاب في طبيعته ، فالسمك يخرج من البيض وليس له أجنحة ، بل له زعانف تساعد على السبح ولا تساعد على الطيران ؛ وبيض الفراش وبيض الذباب

وما إلى ذلك يخرج منه الدود ولا يخرج منه ذوات الجناح . وإذا فقد يخرج من بيضة الفيل فيل ذو أربع قوائم وليس له جناح . وأخيراً تساءل عماره : ما حكم الشرع في بيضة الفيل ، أيحل أكلها للمسلمين أم يحرم عليهم ؟ وهنا كذلك أجب بدقته المهودة أن بيضة الفيل حلال أكلها بشرط ، حرام بشرط : فهي حلال إذا كانت لا تكسب الإنسان الآكل صفة الافتراس ، وهي حرام إذا خيف أن تكسبه هذه الصفة . وإنما يكون الآكل بمنجى من عدوى الافتراس لو كان الفيل البائض هو الجيل العاشر من سلسلة أجيال استأنسها الإنسان . بمثل هذه الدقة العقلية والبراعة الذهنية أثار عماره بن الحارث هذه المسائل عن بيضة الفيل وأجاب عنها ، ولا عجب فهو الفقيه العالم الذي سارت بفتاواه الركبان فيما تعذر حله على غيره من العلماء .

وتصدى معسرة بن المنذر لتفنيد ما قاله عماره بن الحارث في بيضة الفيل من حيث لونها ، فقال عن دليل القياس الذي ساقه عماره بأن كافة الحيوان الذي يبيض بيضه أبيض ، ولذلك فيبيضة الفيل لا بد أن تكون بيضاء اطرادا مع القاعدة ، إنه دليل لا يقوم على سند من الواقع ، فليس صحيحاً أن كافة الحيوان الذي يبيض بيضه أبيض . فبيض البط فيه خضرة خفيفة ، وبيض الدجاج

في بعضه حمرة خفيفة ، ومن الطير ما بيضه أرقط ، ومنه ما بيضه أزرق . وأما دليل اللغة الذي يبنى على أن البيضة مشتقة من البياض . ولذلك وجب أن تكون بيضاء ، فهو استنتاج معكوس ومغلوط في آن معاً : معكوس لأننا حتى لو فرضنا أن البيضة مشتقة من البياض ، فليس هذا دليلاً على أن البيضة بيضاء لأنها بيضة ، بل هو دليل على أنها بيضة لأنها بيضاء . ولتوضيح المعنى المراد ضرب معصرة مثال الدقيق والخبز ، فالدقيق أصل والخبز فرع فإن جاز لنا أن نقول إنه خبز لأنه من دقيق ، فلا يجوز أن نقول إنه من دقيق لأنه خبز . والدليل مغلوط ، لأننا حتى إن ربنا مراحل الاستنتاج ترتيباً صحيحاً ، وقلنا إن البيضة بيضة لأنها بيضاء كانت النتيجة خطأ ، لأنه لا يكفي أن يكون الشيء أبيض لنحكم عليه بأنه بيضة ، وإلا لجاز لنا أن نقول إن هذا الجدار بيضة لأنه أبيض ، وهذا الدقيق بيضة لأنه أبيض ، وهلم جرا .

وبعد أن فند معصرة أقوال عمارة ، بسط رأيه في لون بيضة الفيل ، فقال : إن الفيل حيوان فيه شذوذ عن مستوى الحيوان ، والشذوذ لا بد أن ينتج شذوذاً ، وإلا لما تكافأت المقدمات والنتائج . والشذوذ في البيض أن يكون أسود ، ولذلك فإن كان

الفيل لبييض وجب أن تكون بيضته سوداء ، إذ لو باض بيضة بيضاء ، كنا بمثابة من يقول إن الحيوان الشاذ تنفرع عنه نتيجة لا شذوذ فيها ، وهو قول فيه تناقض بين الصدر والمعجز .

وكان بين تلاميذ ابن الحارث تلميذ نجيب ، فتصدى لارد على نقد معصرة ، فقال : إن معصرة وهو شيخ المنطقة في زمانه ، قد زل زلة ما كان ينبغي أن يقع في مثلها رجل مثله ، فبينا هو ينكر أن يكون للبيض لون خاص ، ويزعم أن من البيض ما هو أزرق أو أرقط ، تراه في الوقت نفسه يقول إنه مادام الفيل حيواناً شاذاً وجب أن يكون بيضه شاذاً في لونه كذلك ، والشذوذ في البيض أن يكون أسود ؛ فكيف يكون الشذوذ سواداً إذا لم تكن القاعدة بياضاً ؟ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نحن نسائل هذا العالم المنطقي : أحميح أن الشاذ لا ينتج إلا شاذاً ؟ أيعن معصرة أنه مادامت الحية لا تلد إلا حية ، فالأعرج لا يلد إلا الأعرج ، والأعمى لا يلد إلا الأعمى ؟ فإن كان الأعرج ينسل من يمشى على قدميه ، كما ينسل الأعمى من يبصر بعينه ، فلماذا لا يبيض الحيوان الشاذ بيضة تجرى مع الإلف والعادة ؟

قال الشيخ : هكذا جرى النقاش بين العلماء

وزلزت الأرض زلزالها ، وقال الشيخ : ما لها ؟ قليل :
يا مولانا قنبلة ذرية ، في لحظة تقضى على الأصل والذرية .
قيل : فعجب الشيخ أن كان في الدنيا علم غير علمه .

قصاصات الزجاج

باحدى الكنائس فى انجلترا نافذة أبدعتها يدُ صنّاع فجاءت
آية من آيات الفن الروائع تحفة للزائرين ؛ اتسقت ألوانها ،
وأنتقت تصاويرها ، وبلغت فى كل شىء حد الكمال ؛ ويقص
عليك الدليل أنه لما بنيت الكنيسة جىء لخرقتها بفنان طبقت
شهرته الخافقين فى الفن الجليل ، واستصحب الأستاذ صبيا كان
يلازمه ليتلقى عنه أصول الفن ، وأخذ الأستاذ الفنان فى زخرفة
النوافذ ، ورصت أمامه ألواح الزجاج ألوانها شتى ، يجذ من هذا
مرة ومن ذلك مرة ، ويرشد الغلام إلى قواعد الفن فى صناعته
كلما وضع فى النافذة قطعة من زجاج ؛ فهنا مربع أزرق وإلى
جانبه حلقة حمراء ، وصورة القديس هنا ، وهنا صورة المذراء .
وكان الأستاذ خلال ذلك يقذف بقصاصات الزجاج غير مبال
بها ، فينثرها يمينا ويسارا ، والغلام من ورائه يجمع هذه القصاصات
ليلقى بها حيث تؤمن العواقب .

لكن الغلام فنان موهوب ، فلم يلق بقصاصات الزجاج
حيث تلقى سائر الفضلات ، بل أخذ يلهو بها فى سويغات فراغه
حتى كانت له فى النهاية نافذة رائعة بارعة هى التى يقف عندها

الزائرون اليوم ليقص عليهم الدليل قصتها ، ويحكى أنه لما فرغ الصبي من نافذته أطلع عليها أستاذه :

— ما هذا الذى أرى ؟

— نافذة صنعتها

— وأنى لك الزجاج ؟

— قصاصات جمعتها

ورأى الأستاذ فى نافذة الغلام فنا لا يقاس إليه فنه ، وكبر

عليه الأمر فانتحر .

ذكرت قصة هذا الغلام الفنان ونافذته ، إذ كنت جالسا أمام مدفأتى ليلة أمس ، وحيدا فى غرفتى ، والدنيا من حولى صامتة لا تسمع فيها صوتا ولا حركة ؛ فأتخذت منها نقطة ابتداء وتركت خواطرى تترى خاطراً فى إثر خاطر

فخطر على ذهنى أول ما خطر مؤرخ فنان أقرب ما يكون شبيهاً فى كتابته للتاريخ بذلك الغلام فى صناعته للنافذة ، فقد كانت نافذته التى صنعها قصصاً تاريخياً هو أحلى ما جرت به راحة على قرطاس ، وكانت قصاصاته التى صنع منها نافذته نتفاً من الأخبار والحوادث تساقطت من بين أصابع الذين احترقوا كتابة التاريخ ، إذ قصر هؤلاء أنفسهم على الحوادث الضخمة والرجال الأعلام

ونفضوا عن أسنة أعلامهم عامة الناس يمينا وشمالا ؛ فمن ذا تعنيه قصة جمال اعترك مرة مع جاره الجمال وساد بينهما الود مرة ، بقدر ماتعنيه الروس المتوجة نختصم أنا وتهادن أنا ؟ من ذا تعنيه قصة امرأة عجوز أحببت قطنها أو كلبها ، بقدر ماتعنيه الأميرة ملأت شفاف قلبها بحب الأمير ؟ لكن صاحبنا المؤرخ الفنان لم يرضه أن يلقي بهذه القصصات فى تراب الرفوف ، فنقاها وصفها وسواها قصصا هى هذه التى تقرأها فتمتلك وتفنتك ؛ لم يبهره الملوك فى قصورهم ولا القادة فى حومات القتال إلا بمقدار ما يكون هؤلاء الملوك والقادة بشرا من البشر ؛ وكان من رأيه أن صولجان الملك قد لا يثير الخيال بمقدار ما يثيره محراث الفلاح ، ولذلك ترى مادته البشرية فى قصصه هى هذا الزارع الصغير وهذا الصانع وهذا البائع وهذا الجندى وهذه الفتاة الريفية الساذجة ؛ فمن هؤلاء تتكون لحة الحياة وسداها . وإنه لمن فضل الله على عباده أن جعل بينهم قدراً مشتركاً لا يملكون أن يخضعوه لهذا التفاوت الذى فرضوه على أنفسهم فرضاً فى شتى نواحي العيش ، فالفتاة الريفية تحب فتاها كما تحب الأميرة أميرها ، وتحزن زوجة الأجير على ولدها إذا أصابه الردى كما تحزن على ولدها زوجة الوزير ؛ فالحمد لله الذى جعل الناس يضحكون ويبكون على

غمرار واحد ، ويجوعون ويشبهون ويرضون ويسخنون على نسق واحد ، ويفتقرون إلى الله ويعبدونه بأسلوب واحد ؛ وأدرك مؤرخنا الفنان هذا القدر المشترك وعرف له وزنه وقيمته ، فجمع قصاصاته التي ألقى بها بين المهملات ، ومن هذه القصاصات صنع آياته الخالدات .

ومضى هذا الخاطر وجاء في إثره خاطر .

طافت بذهني عشرون عاما مضت على صديق لم يكده يخلو فيها إلى حياته أسبوعا واحداً ، وأوشك ألا يمضي يوم خلالها دون قراءة وكتابة يثقف بهما نفسه ومن حوله من الناس ، فكان إنتاجه بمثابة النافذة صنعها من قصاصات ، هي سويغات الفراغ التي أبقته له الدولة بعد أن استأجرت معظم وقته لقاء بضعة قروش رآها أولو الأمر ثمناً عادلاً له في سوق البيع والشراء ، وكأنما هاض صديقي هذا ذلك الجهد الثقيل فأقدمه بينما كانت القافلة في مسير ، أو رأى نفسه يمشي في طريق وقافلة الناس في طريق آخر ؛ هي ماضية من جنوب الأرض إلى شمالها وهو سائر من الشمال إلى الجنوب ، رأى نفسه هابطاً وأنداده في صعود ، وأوفى هؤلاء الأنداد صداقة من كان يلتقي نظرة إشفاق وهو عابر مخلفاً وراءه هذا الزميل المهيض ، وذات صباح مشمس ضاح ، حمل صاحبنا

نافذته وقصد بها إلى أحد السادة رعاة الفن الجميل وهو كاليب في مريضه :

ما هذا الذي جئتني به ؟

— نافذة صنعتها

— وأنى لك الزجاج ؟

— قصاصات جمعتها

وضحك السيد الذي كان من رعاة الفن الجميل وقال : يؤسفني يا بني أن أقول إننا في هذه الدار قد تواضعنا على ألا نتمتع بالفن نافذة قوامها القصاصات ، فهأنت ذا ترى النافذات التي وجدت طريقها إلى جدراننا ألواحاً كاملة .

وحمل المسكين نافذته وعاد إلى مأواه ، ولورآه عندئذ رسام فنان لا تهزها فرصة سانحة أن يخرج للناس آية يكتب على إطارها « خيبة الأمل » ولأصبح ذلك الصديق بعدئذ عبرة لكل من تحدته في أرض الكنانة نفسه أن يصنع نافذة من قصاصات الزجاج .

وكادت تشيع ذكري صديقي اليأس في نفسي ، لولا أن حانت مني التفاتة إلى صورة معلقة على جدار غرفتي ، صورة « الأمل » : كوكب مظلم خلا من أهليه إلا فتاة شد على عينيها برباط فلا ترى ،

وعلى إحدى أذنيها فلا تسمع إلا ضئلاً ، وفي يدها قيثارة تقطعت
أوتارها إلا وترأ ، ومع ذلك كله أحنت الفتاة رأسها في ذلك العالم
الموحش المظلم الصامت ، لعلها تسمع نغماً واحداً من ذلك
الوتر الواحد !

إن حدث لك يا صديقي أن تقرأ هذه السطور ، فنصحني
إليك ألا تؤسك أحكام السادة الذين هم في أرض الوطن العزيز
رعاة الفن الجليل ؛ إنهم لن يزهدوا أرواحهم ياساً حين يرون
أنفسهم صفار الفكر بالقياس إلى فكرك ، ضئال الهمة بالقياس
إلى همتك ، كما فعل أستاذ الفن مع صبيه الموهوب ، بل هم
سيسحقونك أنت سحقاً وهم سينحرونك أنت نحراً ، لبيد وقليلهم
كثيراً وضحلم غزيراً .

ومضى هذا الخاطر وجاء في إثره خاطر .

فتاة في خدرها ، نؤوم الضحى ، تستيقظ لتزيّن ، ثم تمحو
زينتها لتنام ! وهي في سويعات صحوها لا تجاوز ظليل خدرها ، صونا
للشرف ، لأن الشرف من صفات الخفافيش ، هو وضوء الشمس
نقيضان لا يجتمعان ؛ فالقهرمانه الآن في الردهة ، والقهرمانه الآن
في الغرفة ، وساعة هي في البهو وساعة في الشرفة ، وهكذا أخذت
تتعاقب الأيام ، ليل يتلوها النهار ونهار يأتي بعده الليل ؛ شتاء يتلوها

صيف وصيف يأتي بعده الشتاء ؛ والوردة الأرجة ترسل عقبها في
أرض بلقع يباب انتظاراً لمن يكون لها قريناً ؛ والقربين المرتقب
دونه إليها الصعاب ؛ فهذه ساحرة تلاقيه في الطريق وتخادعه حتى
تخدعه ، وتغازله فتصرعه ؛ حتى إذا ما أفاق لنفسه وتبين فيها غش
الساحرات تركها ومضى ، ليصادفه بعدئذ شيخ هرم ملتحم ، سكن
كهنأً بعيداً عن العمران ، وراح بالإكسير يخرج من النحاس
الخسيس ذهباً إيريزاً ؛ فما إن رأى الشيخ فتاناً حتى أغراه بالمكث
إلى جواره حيناً ينفخ له النار ، وله من محصول الذهب مقدار ،
ولبت الفتى ينفخ النار عاما وعلماً وثالثاً بعده رابع وخامس ،
ورائحة الذهب تملأ أنفه وخياشيمه فلا يترك المنفاخ ، والفتاة هنالك
في ارتقابها له تستيقظ لتزيّن ثم تمحو زينتها لتنام . . . تلك الفتاة
قصاصة بشرية قذفت بها الرحي بين المهملات .

ومضى هذا الخاطر وجاء في إثره خاطر ، بل سلسلة من
الخواطر جاءت في تتابع سريع ؛ فالفتاة التي تعطلت في دارها
عن غير ضعف إلا ضعفاً في إدراك ذوبها ، دعت إلى الذهن ألوف
الألوف من الناس الذين انتشروا في أرجاء البلاد مدائنهم والقري ،
لا يعملون أو يعملون وكأنهم لا يعملون ؛ فهم أقرب الناس شبيهاً
بمدينة ضاقت بأهلها سبل العيش ، فاتفق الجيران على أن يتبادلوا

الخدمات ، فكل يغسل لجاره ثيابه ، وكل تكس لجارتها بيتها ؛
ثم دهش أهل المدينة أن رأوا أنفسهم كادحين والبطون لم تزل
على حالها خاوية ! إن السادة إذ أعدوا لأنفسهم حياة ترضى فيهم
الغرائز والشهوات ، نثروا حولهم عن غير وعى هذه القصاصات .

وصاح صائح : كيف السبيل إلى الإصلاح ؟

الإصلاح سبيله أن تعرف لكل قصاصة قيمتها ، وأن تجد
كل قصاصة مكانها من نافذة المجتمع ، فمن لهذه القصاصات
البشرية بمن ينسقها أمة منتجة عاملة ؟ من لهذه القصاصات
البشرية بمثل ذلك الصبي الفنان ؟ .

الدقة الثالثة عشرة

إذا دقت ساعتك ثلاث عشر دقة ، كانت الدقة الثالثة
عشرة خطأ في ذاتها أولاً ، وداعياً إلى الشك في صدق الدقات
السوالف ثانياً ، ثم كانت ثالثاً بمثابة النذير الذي يعلن لك
في صوت جهير أن الآلة كلها فاسدة لا مندوحة لها عن
إصلاح وتعديل .

وقد دقت ساعتى ذات ليلة ثلاث عشرة دقة ، إذ كنت
بين يقظة ونعاس ، ولبثت الدقة الثالثة عشرة حيناً في الهواء تجر
وراءها ذنباً من رنين يرتعش مأججاً فيهمز مسمعى بأصداة خافتة
أخذ يتداخل بعضها في بعض حتى صارت في الأذن طنيناً موصولاً
ودارت في نفسى معانيها مضطربة غامضة كما تدور في النفس أوائل
الأحلام عند من ينسحب من يقظة النهار شيئاً فشيئاً ليأخذ في
رقدة الليل ؛ حتى إذا ما أخذ منى الكرى بمعاقد الجفنين ،
رأيتنى في بهو فسيح كتب على بابه « بهو الفراغة » ، رصت
إزاء جدرانها ثلاثة عشر تابوتاً نقشت على ظهورها رموز ورسوم
مما تراه على توابيت الفراغة الأجداد ؛ لكنها كانت تدق كأنها

الساعات ، كل منها يدق ثلاث عشر دقة ، حتى إذا ما فرغت
الواحدة من دقاتها بدأت الأخرى .

كان البهو فسيحاً معتماً لا تدين فيه حدود الأشياء واضحة إلا
إن دنوت منها ونظرت إليها عن كثب ، فُرشت أرضه بمنثور من
الرمال يبعث صوتاً أجشّ كلما داست على حصبائه قدم ؛ وكان
يضيء في وسطه قنديل ضئيل استقامت في ذبالبته شعلة النار ،
لا تموج يمينا ولا يسرة ، لسكون الهواء ، أو قل لانعدامه ؛ فما
يسع التادم إلى « بهو الفراغة » إلا إحساس عميق بأنه إنما أقبل
من المكان على مقبرة كل ما فيها يوحى بركود الموت وجوده ؛
ولأول مرة أدركتُ في وضوح أن الضوء إذا خفت كان في
طبيعته أقرب إلى الظلام منه إلى الضياء ، لأنه يزيد من الأشباح
التي تتراعى لناظريك ولا يكاد يعينك على الإبصار ، فكأنما هو
ظلام منظور ، أو نار بغير نور .

وقفت ذاهلاً أنصت إلى الدقات التي كانت أدنى إلى
حشرجة الموت منها إلى الرنين الصافي ، وقد امتلأت أرجاء
المكان بأصدائها حتى خيل إلى أن موجات الصوت تتراكم
بعضها فوق بعض ، وأنتى مغموس منها في بركة من صوت ؛
ولأول مرة كذلك أدركتُ في وضوح أن الصوت إذا انبعث من

وادي الموت ، كان في طبيعته أقرب إلى الصمت منه إلى الصيحات ؛
فقد أحسست حولي بصمت عميق رغم هذه الأصداء التي تملأ
أرجاء المكان ، وخشيت أن أحرك قدما فيصيت الرمل تحت
قدمي ، ويعلمن بصوته عن وجودي في مكان أريد به في أغلب
الظن أن يرمز للموت لا أن يكون مضطرباً للحياة والأحياء ؛
لكني لما سكنت ساعة عن دقيها وبدأت ساعة ، أحسست
بدافع يجذبني إلى الساعة الدقاقة ولم أملك الوقوف ، فخطوت
نحوها خطوا الخائف الوجل ، جف في حلقة الريق وارتعدت منه
الفرائص ، وودّ لو استطاع أن يحقق رجاء أبي الملاء ، فديسر في
الهواء رويداً حتى لا يحرك حصباء الأرض بقدميه .

دنوت من الساعة الدقاقة فإذا بوجه التابوت فيها قد تبدل
شيئاً عجيباً تكاد تخجل لرؤيته صريعاً ؛ انقلب وجه التابوت في
ثلاثة أرباعه السفلى لوحاً من زجاج وفي ربه الأعلى مربعاً من
الخشب فيه ثقب مستدير ؛ وكان البندول إنساناً مخنوقاً أخذ جثمانه
يتأرجح خلف الغلاف الزجاجي يمينا ويسرة ، مشدود الذراعين
موثق القدمين ، وتدلى رأسه من الثقب في أعلى الإطار ؛ يغطيه
طربوش قديم بال مجعد السقف والجوانب ، طال « زره » وطال
حتى لف حول عنقه ثلاث عشرة حلقة ، وجحظت عيناه وانفتح

فهو وتبدل لسانه وأخذ يهتز في اتجاه معاكس لحركة جسده ، فإن تأرجح الجسد يمينا مال لسانه نحو اليسار ، وإن تأرجح الجسد يساراً مال لسانه نحو اليمين ، أو خيل إلى أنه يفعل .

لم يفتنى بين هذه المفاز كلها أن أعجب للقدر كيف كان في مسخريته حكيماً وفي حكيمته ساخراً ؛ فقد مات الرجل محتقاً بما اتخذ في حياته دليلاً على أنه حي بين الأحياء ! مات محتقاً بالذي اصطنعه رمزاً لمزته ! أكان السم الزعاف إذاً يكن له في خيوط هذا الإرث الجيد ؟ وقع في وهمه أن تراث أجداده باعته على الحياة والنشاط ، فإذا تراث الأجداد ينحدر به إلى مهوى الموت والمهلك ! مات للمسكين محتقاً في أغلال وأصفاد من نسج الآباء والأجداد ، ولو أخلص له النصيحة ناصح قبل أن يفتنى لأشار عليه أن ينسلخ من جلده انسلاخاً ، لأن في جلده الضر والوباء ؛ لو أخلص له النصيحة ناصح قبل أن يفتنى لأشار عليه أن يلقى عن نفسه هذا اللوث الرابض ، وأن يحطم هذه الأغلال وهذه الأصفاد ليكون بين سائر الناس خفيفاً نشيطاً ؛ لكن علموه فتعلم أن أصفاده سلاسل من ذهب ، وهل يطرح الذهب النضار إلى أحمق مجنون ؟ علموه فتعلم أن في الدنيا شرقاً وغرباً ، وأن للشرق هذا البريق الذي تلمع به تلك السلاسل الذهبية ؛

ولو أخلص له النصيحة ناصح قبل أن يفتنى لأفهمه أن ليس في الدنيا شرق وغرب ، لكن في الدنيا إنساناً يحيا ويتقدم فيقال له غرب ، ويتدهور ويموت فيقال له شرق ، وله بعد ذلك أن يختار بين الحياة والموت : لكن مات المسكين — وأسفاً — مفلول اليدين موثق القدمين ؛ غلوه بسلسلة ذرعها خمسة آلاف عام تمتد إلى حيث كان أجداده عن الحياة في شغل بينون الأهرام الشوامخ استعداداً للموت والبقاء ، ومن يدرى ؟ لعله مات بعد أن بذر في أبنائه بذور الرجاء .

هنا دقت الساعة دقتها الثالثة عشرة ، واتسعت من الرأس المتدلى ثغرة فيه ، فإذا هي باب والشفتان مصرعاة ، وانقلب اللسان حارساً شديداً على وسطه حزاماً أحمر ، وانحنى في احترام يدعو للدخول .

دخلت لأجدني واقفاً أمام بناء فخم ضخم رفيع العماد ، ودخلت الدار فكان الذي دخلته حجرة دراسية تحلق في صحنها ثلاثة عشر صبياً وقف في وسطهم معلمهم ، على نحو ما تحلقت التواييت في الهوى واستقامت في وسطها شعلة القنديلين ، ولسبب لا أدريه حدثت بصري في المعلم حيناً لا أكاد أتجول عنه ، لم تعجبني هيئته ، ولم أشهد على وجهه علامات الصقل والتهديب

التي يتركها العلم عادة على وجوه أصحابه ، كان طربوشه أوسع من رأسه فهبط حتى ارتكز على أذنيه ، وغطى جبهته إلا قليلا وكاد يلمس حاجبيه ، وكان على صدغيه خليط متنافر من آثار الجدرى ومن بقع جلدية مختلفة ألوانها ، حلق شاربيه إلا جزءاً صغيراً جداً تكوّم تحت أنفه كالخنفساء ، ثيابه كلها عجائب ، فبدلته مصنوعة من قماش لم يُرد ناسجه أن ينتهي إلى هذا الذي انتهى إليه ، وسترته طالت حتى بلغت ركبتيه ، فهي سترة ونصف سترة أو هي ثلاثة أرباع الجبة ، فلا هي هذه ولا هي تلك ، وقيصه لم تنظمه مكواة ، وحذاءه طويل شاحب ، وقد علق أحد سرواليه بأعلى فرد من حذاءيه فأنحسر عن شيء من ساقه ، وكان الطباشير يلون يديه وكميه وصدر سترته ، وتناثرت منه بقعة أو بقتان فوق طربوشه ؛ أخذ يبذل الكتاب بين يديه ، فيمسكه بيمناه تارة وبيسراه تارة ، وكلما صنع ذلك جذب صدر سترته بيده التي أطلق سراحها ، ثم وضع يده في جيبه ، ثم أخرجها ، ثم سعل سعالاً خفيفاً ، ثم استرق إلى نظر المتتبع المرتاب كأنه طير وأنا صائده ، ولم أعجب لهذا منه ، إذ الناس في بلادنا رجالان : صائد ومصيد ، وقد يكون الرجل صائداً في موضع ، مصيداً في موضع آخر ، وقد يكون مصيد اليوم صائد الغد ...

ياسبحان الله العلي العظيم ! أمن هذا الرجل يستمد هؤلاء الأطفال العلم ، ويستقون الأخلاق ، ويستوحون أصول الذوق الجميل ؟ أى عجب بعد ذلك إن شب هؤلاء الأطفال رجالا وساروا في شارع البحر بشعر الإسكندرية الجميل فأكلوا الخس وقذفوا بأوراقه في طول الشارع وعرضه ، لا ترى أبصارهم قبح ما يصنعون ؟ أى عجب إن شب هؤلاء الأطفال رجالا فصوا القصب في عربات الترام وألقوا بالنفل في أرض العربية ، لا يدركون في ذلك شيئاً يُذم ويعاب ؟ أى عجب إن شب هؤلاء الأطفال رجالا فلبسوا عمام طرايش وطراير وطاقيات ولاسات وبدلات وجبات ، كأنهم البهلوانات في سوق الأراجيح ، ولا تقع أبصارهم من ذلك كله على شيء يخدش الذوق الجميل ؟ إن هذا المعلم بين هؤلاء الصبيان هو بعينه ذلك القنديل الضئيل في البهو بين التواييت ، هو أقرب في طبيعته إلى الضلام منه إلى النضاء ، هو إلى الجهل والتجهيل أدنى منه إلى العلم والتعليم .

ووقف سبل خواطري حين قال المعلم بصوت خشن غليظ :

« اقرأ يا شاطر » .

وقرأ الشاطر : جَلَسَ ... وَفَتَ ... أَكَلَ ... ضَرَبَ ...

حتى أكمل على هذا النحو اثنتي عشرة كلمة ، فقلت له في لهجة

المفتشين — وللمفتشين نعمة خاصة — : « تهجّ الكلمة التالية
يا شاطر » .

فنظر الشاطر إلىّ فألى الكتاب فألىّ مرة أخرى فألى معلمه
فألى الكتاب وقال : ب . . . فتحة ب . . . ت . . . فتحة ت . . . ك
فتحة ك . . . ز ر ع . . .

هى الدقة الثالثة عشرة التى هى خطأ فى ذاتها أولاً ، ومدعاة
إلى الشك فى صدق الدقات السوالمف ثانياً ، وهى ثالثاً بمثابة
النذير الذى يعلن لك فى صوت جهير أن الآلة كلها فاسدة
لامندوحة لها عن إصلاح وتغيير ، لم يتعلم هذا الصبى علماً ، ولم
يتعلم خلقاً ، ولم يتعلم شيئاً من قواعد الذوق الجميل .

وغادرت حجرة الدراسة من فورى لألتقى مرة أخرى
بالحارس الذى شد على وسطه حزاماً أحمر ، فأدخلنى مصعداً
وضغط فيه على زر وتركنى ، فطلع بى المصعد ثلاثة عشر طابقاً
حتى بلغ بى قمة البناء ، وانفتح بابه على مقهى صاحب الأصوات
المتنافرة : طق ، طاق ، سأ ، صأ ، سأ ، دودو ، كشش ، طق ،
طاق . . . تصفيق وصياح وضرب بأحجار النرد وقهقهة من رجال
جلسوا إلى مناضد رصت فى ثلاثة صفوف ، فى كل منها أربع ،
ثم انفردت المنضدة الثالثة عشرة فى ركن وحدها ، وجلس إليها

رجل فى نحو الخامسة والثلاثين ، فجلست إلى جانبه وحييته فحيتي :

— ما هذا المكان ؟

— ندوة الجامعة .

— وأنت من أبنائها ؟

— تعنى من أبناء الجامعة ؟ نعم ، تخرجت فيها منذ ثلاثة

عشر عاماً ، تلاميذى هم اليوم طلاب الجامعة .

— أية مادة درست ؟

— أنا دكتور فى التاريخ كانت رسالتى « اسكندرية

الإسكندر » .

— موضوع لطيف .

— لم اختره للطفه ، إنما اخترته فى إثر حادث وقع لى فى

الإسكندرية . . . كانت لى سيارة جميلة أسوقها ، وحدث ذات

يوم إذ كنت أصطاف ، أن اثنتيت بسيارتى من شارع إلى

شارع فصدمتنى سيارة جاءت من الجهة المقابلة ، صدمتى صدمة

ينحطم لها الصلب الصلب ، فما أخذشت من سيارتى قلامة

ظفر ، وعجب الناس للمعجزة ، ولو عرفوا سر المعجزة ما عجبوا ،

فقد كان فى سيارتى مصحف شريف ؛ ويشاء الله أن يجالس

والدى فى هذه اللحظة عينها وهو فى داره رجلٌ كشف الله عنه

حجاب الغيب ، فصاح : الله أكبر ! وسأل والدى : ما الخبر ؟
فقال الرجل : كان ابنك بين أنياب الموت فأنقذه من الموت
سر من الله .

هنا دقت ساعة الندوة ثلاث عشرة دقة ، واستيقظتُ عند
الدقة الثالثة عشرة لأرى أن غرفتي لم تزل في ظلمة من
الليل البهيم .

شعر مصبوغ

رأيت رجلاً بين خمسينه وستينه صبغ بالحناء رأسه وشاربيه
ليطمس بالصبغة ترقيم الزمن .

لكن الزمن أبي أن يلين ويستكين ، فطفق كل منهما
يناوش الآخر في لباقة المحتال الماهر ، مناوشة كانت أقرب إلى
الملاعبة والمداعبة منها إلى القتال الجاد العنيف ؛ فصاحبنا ما ينفك
لشبيهه راصداً — زجاجة الصبغة في يمينه والمرآة في يسراه —
كما لاح له من شبيهه ضوء هنا أولع له برق هناك ، قابله بهذا
الذي أعده له الصيدلى في دقة الفن كله والعلم كله ، حتى يخدع
الناس عن هذه الشيوخة السكرية التي أنشبت فيه الأنياب
والأظفار ، بل حتى يخدع نفسه عن هذا الهرم الذي يدنو به نحو
الفناء بخطو دءوب ؛ ثم ما ينفك الشيب أن يقافله حيناً بعد حين ،
فيطل عليه بشعرات بيض ينثرها في الشمال مرة وفي الجنوب
مرة ، وفي وسط الرأس تارة ؛ وطوراً يستبدل بهذا الضرب من
قتال السكر والفر هجوماً عاماً منظماً ، فيدفع لصاحبنا شعره المصبوغ
كله إلى الوراء خطوة ، فيبديه أخضب الأعلى أبيض الأسافل ؛

وينبغي أن نسجل للحقيقة والتاريخ أن الشيب في هذه المعركة كان أنبل من صاحبه ؛ فصاحبه دائماً يسدد طعنته في الخفاء ، ولا يبوح بسر قتاله إلا إلى أخلص الخلقاء ، وأما الشيب فيرد له الطعنة علناً وفي وضوح النهار .

وأعجب العجب أن صاحب الشعر المصبوغ لم يدرك أن موطن الشيب في دماغه ، وأن جذوره قد ضربت في جوفه وأحشائه ، وأنه إن أراد للشباب رجعة ، فليتوكل على الله وليضع أمله في أبنائه .

ذكرت صاحب الرأس المصبوغ حين خرجت بالأمس إلى ضاحية ريفية في شمال لندن ، ونحن الآن من فصول العام في فصل الخريف ؛ والفصول في إنجلترا بينة المعالم واضحة الحدود ؛ فلست بمستطيع أن تخطي الشتاء إذ يكسو لك ما حولك بين آونة وأخرى بالتلج والصقيع ؛ ولست بمستطيع أن تخطي الربيع والدنيا من حولك كلها تورق وتزهو ؛ أو أن تخطي الصيف وقد خذت النار في المدافئ وانقطع عنك نداء العداد الذي لا يشبع بسيال من الشلنات تلقها في جوفه صباحاً وعصراً ومساءً ؛ ثم لست بمستطيع أن تخطي الخريف وكل ورقة تقع عليها عينك فوق الشجر قد أخذت تجف وتذبل استعداداً للسقوط .

ذكرته حين خرجت بالأمس إلى خلاء ريفي وافترشت معطف المطر ، وأسندت ظهري إلى جذع سنديانة ضخمة ، وعلى بعد أمتار مني دار ريفية صغيرة إلى جانبها شجرة لم أدر ما نوعها ، لم يلبث أن جاءها غلام في نحو الثانية عشرة من عمره ، وارتقى صندوقاً خشبياً وفي إحدى يديه وعاء فيه طلاء وفي الأخرى فرجون ؛ ثم أخذ يغمس فرجونه في الوعاء ويطل ما اصفر من حواشي الورق ليرد له لونه المفقود ، ولبت على هذا النحو ساعة يعمل في أناة وصبر ؛ ولم يكن خلال هذه الساعة قد أكمل نصف غصن واحد ، وهبت ريح خفيفة أسقطت له بعض ما صبغ ؛ وعندئذ خرج من الدار شيخ محدودب الظهر ، وصاح بالغلام :

— ماذا تصنع يا ولیم ؟ .

— أصبغ بالطلاء الأخضر ما اصفر من أوراق شجرتي .
إنها يا عماء تدوى وتنحدر إلى فناء سريع .

فأمراً الشيخ كفه على صدغيه وابتسم ، لكنه لم يقل شيئاً . وإنه لمن العجب حقاً ألا يفتن الغلام — مهما يكن من غفلته وقلة خبرته — إلى أن الصبغة الخضراء لن تقف دورة الفلك في وجه الشتاء ، كلا ولن تجدى شيئاً في دفع الفناء ؛ وأنه إن أراد للشجرة حياة فليتوكل على الله

وليحسن لها الغذاء وليرقب بالرجاء نهضة الربيع .

وذكرت صاحب الرأس المصبوغ ، حين رأيت صبيا له ساعة اختلت عدتها فَضَلَّتْ عقاربها ، وعز عليه ألا تدل ساعته على الزمن كما تدل عليه الساعات عند سائر الناس ، فصم أن يهديها هو إلى الزمن بدل أن تهديه ؛ وكان في بهو منزلم ساعة دقاقة كلما دقت ربع الساعة أو نصفها ، أدار الصبي عقارب ساعته بيديه ، حتى ضاق صدرأ بهذا العناء المتصل ، فقد كان يرجو أن يؤدي إلحاحه وإخلاصه في أن تتخذ العقارب وضعها الصحيح إلى إصلاح ما فسد ، ولم يدرك أبداً أن ساعته إن يصلح لها أمر إلا إذا أصلحت عجلاتها وتروسها حيث العطب والفساد .

وذكرته إذ ذكرت جارة لنا مرض وحيدها وارتفعت حرارته إلى درجة أشرفت به على الموت ، ولم تدر الأم المسكينة ماذا تصنع ، فأخذت تضع على رأس مريضها وجسده ثلجاً بعد ثلج ، لتزيل عنه العلة بإزالة ظواهرها ، فما لبثت أن أزلت فعلا عن ولدها العلة وظواهرها معا ، لأنها أزالته عن الحياة .

وذكرته حين ذكرت أمة بأسرها نسجت إصلاحها على منوال الشعر المصبوغ ، الذي يبدي لك كل علامات الشباب إلا شيئاً واحداً ، هو فتوة الشباب ! ففي مدارسها كل ما في مدارس

العالمين من أدوات ومعدات وتلاميذ وأساتيد ، إلا شيئاً واحداً هو التعليم ، إذا أردنا بالتعليم تربية تخلق وجهة النظر إلى الحياة رأساً على عقب ؛ وفي جيشها كل ما في جيوش العالمين من ضباط وجنود وذخيرة وعتاد ، إلا شيئاً واحداً هو أنه لا يقاتل ؛ وفي دستورها كل ما في دساتير الأرض من مساواة بين الأفراد ، إلا شيئاً واحداً هو أن ليس بين الأفراد هذه المساواة .

ذكرت صاحب الرأس المصبوغ حين ذكرت أمة بأسرها سرى الطغيان في دماغها ، وتمكن من أنسجتها وأعضائها ، ثم أرادت لدائها دواءً ، فأثبتت في محفوظاتها أن الناس سواسية ، وسجلت في دستورها أن يكون فيها — كما في سائر الأمم — انتخاب ونواب ؛ ولعلها لم تدر أن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

فإن وجدت — وما أظنك واحداً — بين شعوب الأرض شعباً ، والوالد فيه يرى ألا أبوة بغير سياسة الحجاج في بيته ، والولد يرى ألا بنوة بغير خشوع وخضوع ؛ الزوج فيه يرى ألا رجولة بغير احتسكار للرأى ، والزوجة ترى ألا قرار لحياتها بغير إذعان ؛ المعلم فيه يرى ألا تعليم بغير أن ينصت التلاميذ في صمت لعباراته كأنما هو راع في معبد ينطق لعباد الله بما خطَّ لهم القضاء

في اللوح المحفوظ ، ويرى التلاميذ ألا تعلم بغير أن يحفظوا
مؤمنين مصدقين لما قاله المعلم من قول مأثور : الصانع فيه لا يلتن
صناعته لصبيه إلا إذا سامه صنوف العذاب ألوانا ، وصبيه يرى
ألا سبيل إلى تلقى الحرفة دون أن يستسلم لهذا القضاء المحتوم ؛
الرئيس فيه يرى من حقه على مرءوسه أن يطفى ويتجبر ، والمرءوس
يرى من واجبه نحو رئيسه أن يستضال ويستصغر ؛ المالك فيه
يرى من حقه على أجيده أن يستغله ويستذله ؛ والأجير يرى من
واجبه نحو المالك أن يُستغل وأن يُستذل ، المخدوم فيه لا يهديه
ضميره أن يكون لخادمه ما لأبنائه من حقوق البشر ، والخادم
لا يحس أنه كهؤلاء الأبناء ، بشر له ما لهم من حقوق ، الشرطي
فيه يرى من حقه أن يسب ويصفع ، وصاحب الحاجة عند
الشرطي يرى من واجبه أن يفضى عن شيء من السباب
والصفعات .

إن وجدت — وما أظنك واجداً — بين شعوب الأرض
شعبا فيه هذا كله ، وأكثر من هذا كله ، ثم وجدت في
محفوظاته أن الناس سواسية ، وفي دستوره أن له انتخابا ونوابا ،
فاعلم أنه شعب عز عليه أن يرى ضعفه ماثلا أمام عينيه ، فصبغ
بالحناء رأسه وشاربيه .

تجويج النمر

أنا مدين بساعة من أجل ساعات التفكير للكاتب الفاضل
الذى أدخل تعديلا على نظرية التطور كما رآها دارون ، فجعل
الأناسى تنتمى إلى أصول عدة ، لا إلى أصل واحد ؛ فالناس في
رأى الكاتب الفاضل منهم الكلب الذليل ، ومنهم الخنزير
القذر ، والفأر الجبان ، والثعلب الماكر ، والحمار العبيط ، كما أن
منهم الليث المصور ؛ وإنه لمن الشطط والإسراف حقاً أن نحاول
التوحيد فيما أراد له الله اختلافا وتباينا

تلك لمسة عبقرى لا شك في نبوغه ، والرأى فيما يظهر حق
لا ريب فيه ؛ فليس الأمر هنا خيالا شطح بالكاتب فطار به
عن الواقع ، أو شطح به الكاتب وهو من برجه العاجى في عزلة
عن الناس ، بل هو مستمد من ذلك الواقع نفسه ومن هؤلاء
الناس ؛ ودنيا الواقع لم تحتف ، ولن تحتفى إلى آخر الدهر ، فإن
شئت تحقيقاً لما نزعته لك فسير في الطريق مفتوح العينين ،
لا نطلب منك أكثر من هذا ولا أقل ؛ على أننا نشترط شرطاً
واحداً ، وهو ألا تتخذع بالإهاب البشرى الذى يلبسه الناس في

الطريق ، بل احلل عراه بخيالك — ولا شك أن لك نصيباً من الخيال قل أو أكثر — وسترى في جوفه الكلب أو الخنزير أو الفأر أو الحمار أو ماشاءت لك الظروف أن تجد ؛ وتقول احلل عرى هذا الإهاب البشرى بخيالك ، لا لأننا نظن أن هذه الصنوف الحيوانية الكامنة في أجواف الأدميين ضرب من ضروب الخيال ؛ ولكننا نريد لك السلامة والعافية ، فقد تبقر إنسانا لتخرج منه حيوانه المستور ، فإذا الدولة تقتضيك حيانك ثمناً لما صنعت يدك .

والساعة الجميلة التي أنا مدين بها لكاتبنا الفاضل ، هي ساعة استبطنت فيها دخيلة نفسى أولاً ، ثم استعرضت بعدئذ «ش» و «ب» ممن أعرف من الناس ، وحاولت أن أتقّب كلاً إلى عروقه الأولى ؛ وما إن بدأت بالنظر إلى طوية نفسى حتى اعترانى مزيج عجيب من غبطة وذهول ، فقد سرنى أن أصيب في التطبيق نجاحاً سريعاً ، فقد كان حسبي نظرة واحدة سريعة لأشهد الحيوان الكامن في جوفى جلياً وانحما برأسه الضخم وأذنيه الكبيرتين ونظرتة البلهاء ؛ ولكن كم حز في نفسى ألا أجد في إهابى إلا هذا الحمار العبيط ! لم أجد هناك الليث المصور الذى تمنيت ، بل لم أجد هناك الثعلب الماكر ، فلأن أكون ما كرا

ذا دهاء والتواء خير ألف مرة من أن أكون حماراً تتعاقب عليه الأعوام عقداً بعد عقد ، فلا يعرف كيف يظفر منها بما يظفر به سواه في أيام معدودة ؛ على أنى ما كدت أبدأ في كشف الفطاء عن دخيلة «ش» و «ب» حتى تعثرت وبدت لى صعاب لم أكن أتوهم وجودها ؛ فذهب الكاتب الفاضل بسيط في ظاهره شديد التعقيد فى حقيقته ؛ وقد لا يكون فى الأمر تعقيد ، وإنما هو قصور منى وعجز فى قدرتى ؛ ولا بأس هنا من الاعتراف للقارى بما يصعب جداً على إنسان أن يعترف به ، وهو أنى فى موقف لا أحسد عليه من ضعف الإدراك ؛ أنا لا أنواضع ، فقد علمتنى التجربة المرة فى أعوام جاوزت بها الأربعين ؛ أن التواضع فى مصر المحروسة بعناية الله سرعان ما يصبح ضعة ، والتهاون فيها لا يلبث أن ينقلب هواناً ؛ وإن شئت الدليل على صدق ما أقول ، فدونك مقياس الحياة العملية الناجحة ، قسنى بهذا المقياس ، ترى أنحدر إلى شيخوختى بما يبدأ به الناس عادة شوط الشباب ، تر البداية عند الناس منتهى ؛ وإذا علمت أن منزنتك عند الناس معيارها نجاحك فى الحياة العملية عرفت فداحة المصاب ؛ ثم ألم أنبتك منذ قليل أنى صوبت نظرى إلى جوفى فما راعنى إلا حمار عبيط ينكشف عنه الستار ؟

إذا فقد لا يكون في الأمر تمقيد ، وقد تكون العلة قصورى
وعجزى ؛ وسواء كانت هذه أو تلك ، فنحن الآن في موقف
المؤرخ يقص على الناس ما وقع ، والذي وقع هو أنى أزلت الفطاء
البشرى عن «ش» و «ب» فوجدت في كل منهما أكثر من
حيوان واحد ، وكان النمر عنصراً مشتركاً فيهما معا ؛ ففي «ش»
رأيت كلباً ونمراً وفي «ب» رأيت فأراً ونمراً ؛ هنا أسقط في
يمنى ، ولم أدر بماذا أفسر ما أرى ، فلا هو يجرى مع دارون في
جمع الناس تحت أصل واحد ، ولا هو يجرى مع مذهب الكاتب
الفاضل في تعدد الأصول ؛ بل الأمر فيما أرى يقع وسطاً بين
المذهبيين ، فأيهما أختار لنفسى رأياً ومذهباً ؟

ولم تدم حيرتى إلا لحظة قصيرة ، ثم استجمعت شجاعتي
وقوائى ، وانتهيت إلى قرار ، فلماذا أضعف أمام دارون ؟ ولماذا
أضعف أمام الكاتب الفاضل صاحب التعديل ؟ أليست الحقائق
أمامى جبهة الصوت لا تدع مجالاً لريب مرتاب ؟ أليس هذا
«ش» أمام ناظرى فيه الكلب والنمر فى آن معا ، ثم أليس «ب»
فيه فأر والنمر جنباً إلى جنب ؟ إن سلامة المنطق تقضى بأنه إذا
تعارضت النظرية والحقائق فلا بد من نسخ النظرية استمساكاً
بالحقائق ، ولا بد من إعادة التفكير لملنا نهتدى إلى نظرية أخرى

تتكافأ مع الحقائق التى تراها العيون وتحسها الأيدى ؛ فلماذا
لا أدلى بدلوى فى الدلاء لعلها تخرج للناس بقليل من الماء ؟ وإذا
فهاك ما انتهيت إليه :

ليس الناس جميعاً فروعاً عن أصل واحد ، كلا ولا هم بغير
هذا الأصل الواحد ؛ فإذا استثنينا الحمار العبيط دون سواه ، وجدنا
كافة الناس تتفق فى شىء هو النمر ، ثم تختلف فى أشياء هى شتى
صنوف الحيوان ؛ فكل فرد من الناس — ما خلا الحمار — فى
جوفه نوع من الحيوان وإلى جانبه نمر ، وهو بيدى من هذين
التوأمين ما يقابل به الموقف على أتم وجه وأوفاه . فقد رأيت
«ش» فى موقف بذاته كلباً ذليلاً وضعياً خافت الصوت خافض
البصر حتى إذا ما سنحت له الفرصة المواتية «تنمر» ؛ وقد رأيت
«ب» ذات ساعة فأراً ضئيلاً هزليلاً رعديداً جباناً ، حتى إذا
ما سنحت له الفرصة أيضاً «تنمر» . وهكذا قل فى شتى أفراد
الإنسان ، إلا من كان يؤوى فى بطنه حماراً عبيطاً ، فهذا قد
تواتيه ظروف «التنمر» ولا يفعل ، لسبب بسيط جداً ، هو أنه
ليس فى جوفه نمر إلى جانب الحمار ، والشىء لا يخفق من العدم .
أحب أن أؤكد للقارئ الكريم أننى فيما أروى له عن
«ش» و «ب» إنما أصدر عن واقع شهادته بعينى ، ولست هنا

بالمأجور الذي تضطره إلى الكذب دواعي الارتزاق . ولو كان «ش» و «ب» هذان من صفار الناس ، لجاز لك أن تقول : لكن هذين الرجلين اللذين سقتهما مثلاً ، صغيران حقيران ، تجوز عليهما الذلة والمسكنة ، ولو وقعت على رجلين من كبار القوم لوجدتهما في أغلب الظن نمرين خالصين لوجه الله ، لا يشوب بأس النمر فيهما ضعة الكلاب ولا جبن الفئران ؛ ولكن اعتراضك مردود عليك قبل أن تبديه ، لأن «ش» كان صاحب عزة و «ب» كان صاحب سعادة ؛ والعزة في بلادنا — كما تعلم — أقل شأنًا من السعادة ، فكل أربع عزات أو خمس فيما أظن تساوى سعادة واحدة — ولا بأس هنا من تذكرك أيها القارئ (مفترضاً أنك مثلي لست من أصحاب العزة ولا من أصحاب السعادة ، لأن الطيور على أشكالها تقع) لا بأس من تذكرك هنا بالحقيقة المرة التي لا بد أن تكون قد عرفت وأحسستها منذ زمن طويل ، وهي أن الأعراء في مصر قليلون ، وأقل منهم السعداء ، وأنه لا يجوز لك أن تكون عزيزاً أو سعيداً إلا إذا صدر لك بذلك قانون ، وإلى أن يصدر لك مثل هذا القانون ينبغي أن تظل شقيماً ذليلاً — ونعود إلى صاحب العزة «ش» وصاحب السعادة «ب» وقد التقيا ذات يوم ؛ وقد كنت وثيق

الصلة بصاحب العزة ، فلم أعهد فيه إلا نمرًا يكشر للناس عن أنيابه ويلفظ الشرر من عينيه ؛ لا يخرج الألفاظ من شفتيه هينة لينة ، كما أخرجها أنا أو كما تخرجها أنت ، بل كانت له طريقة عجبية في إخراجها ، إذ كان يضغط على بعض النبرات ويصعد بصوته تدريجاً بحيث يتحتم أن يجيء آخر الكلام أعلى صوتاً من أوله ، وكنت أسمع أن حظوته مكسوبة عند رؤسائه لهذا ، كما كنت أعلم أن جانبه مرهوب عند مرءوسيه لهذا أيضاً — وكم أثار هذا الرجل في نفسي أعرق الحشرات ، لأن في صوتي تسلخاً يستحيل معه الصعود في مناصب الدولة — رأيت هذا النمر الضاري ذات يوم بين يدي صاحب السعادة فرأيت عجباً ، رأيت باسماً كفيه على صدره كأنه أمام ربه ساعة الصلاة ، ثم رأيتة ... وفي الوصف وكل مصرى يعلم ما أردت أن أقول ؟ وهنا لا أستثنى صاحب عزة أو سعادة ؛ فأنا أتحدى علناً صاحب عزة ألا يكون له نمر بين أصحاب السعادة ، أو صاحب سعادة ألا يكون له نمر بين أصحاب المعالي ، أو صاحب معال ألا يكون له نمر بين أصحاب الدولة ، أو صاحب دولة ألا يكون له نمر بين أصحاب الرفعة .

النمر ! النمر ! النمر !

هذا النمر الرابض في جلودنا هو بيت الداء وأس البلاء؛ لو بعون الله أخرجناه ، ومن جذوره اقتلعناه ، صلح من أمرنا مافسد واستقام من حياتنا ما اعوج؛ لو أخرجنا من أجوافنا هذا النمر الضارى ما وجد الكلب منا داعياً أن يذل ، ولا الفأر مبرراً أن يجبن ... لكن كيف السبيل إلى تحقيق هذه الأمنية ودونها — فيما يبدو — خرط القتاد ؟

لكن مهلا ، فأصعب المسائل قد يزول بأسهل الحلول .

فقد ذكرت الآن شكسبير — لك الله يا شيخ شعراء العالمين ! — وذكرت روايته « ترويض النمرة » : رجل عريض الثراء له ابنتان ، كبراهما نمرة شמוש جموح ، وصغرها وديعة رقيقة ، والخطابون للصغرى كثيرون ، لكن الوالد أبى أن يأذن بزواج الصغرى قبل أختها الكبرى ، فمن لهذه الكبرى بالخطاب وهي النمرة الضارية ؟ وسمع رجل بقصة الغنى وابنتيه وعرض على الغنى الزواج من كبرى ابنتيه إذا هو أعطاه مقداراً معيناً من المال ، وتمت الصفقة وأخذ العريس عروسه إلى بلده ، فكان كأنما وضع مع الوحش المفترس في قفص واحد ؛ لكن صاحبنا استسهل الصعب وابتسم استخفافاً بما استثقله سواء من الرجال ، وكان علاج المشكلة عنده حيناً يسيراً ، وهو تجويع هذه النمرة ،

فيأتى وقت الغداء فلا طعام ، ويأتى وقت العشاء ولا طعام ؛ وتم ذلك في لباقة كادت تقنع النمرة البشرية أن الرجل إنما صدر في كل ذلك عن حب أصيل ، لكنها ككل الناس تريد الطعام لتعيش ؛ وما زال الرجل بها تجويعاً حتى صارت في قبضة يده ، يشير لها إلى الشمس قائلاً : هذا هو القمر ، فتقول نعم إنه القمر يا مولاي ، ويشير لها إلى الرجل الشيخ تغضناً وجهه واييضت لحيته قائلاً : وهذه فتاة حسناء . فتقول : نعم يا مولاي ما أروعها من فتاة حسناء !

وشبيه جداً بهذا منهج جماعة اشتراكية في إنجلترا نشأت في أواخر القرن الماضي ، وكان لها كل الفضل في قلب الحياة الإنجليزية بحيث آل الحكم كما نرى إلى أيدٍ اشتراكية خالصة ؛ هذه الجماعة تسمى نفسها « الجمعية الفابية » نسبة إلى قائد روماني كان يدعى « فابيوس » وكانت خطته في الحرب مراوغة العدو حتى يرهقه دون أن يهجم عليه بهمة واحدة ؛ وكذلك أرادت هذه الجماعة أن تحارب أعداءها ، لا بالثورة عليهم ، بل بإرهاقهم ، بحيث يتلفتون فلا يجدون في الميدان مادة تمكنهم من الصولان والجولان .

والآن اليك أيها القارىء أسوق الحديث ، فليس من شك

في أن عليك نمرأ يتر بص بك الدوائر — وأنت سعيد إذا كان لك نمر واحد — ثم ليس من شك في أنك تريد القضاء على هذا النمر لينزاح عن صدرك كابوس يقض لك في الليل مضجحك ؛ فهأنذا أصف لك خطة القتال ، لا أريد منك جزاء ، وإن كنت أريد الشكور ؛ التجويع هو وسيلة القضاء على النمر ، إن النمر يتغذى وينمو ويتزعمع كلما أفسحت له أنت من مجال « التمر » ، وأنا لا أشير عليك بأن تطلق عليه نمر ك لتجازه نمرأ بتمر ؛ إنك تخلص لنفسك ولوطنك لو جوعت هذا النمر أينما وجدته ، فكما بدت على المتسلط عليك أعراض « التمر » انسحب من غرفته واتركه وحيداً بغير غذاء ، عندئذ يأكل النمر بعضه ، ويقضى على نفسه القضاء الأخير ، فيريح ويستريح .

الكبش الجريح

وثب الذئب على الكبش فزق منه واتهمش ؛ وفرح الذئب لأن في طبيعته أن ينهش ويمزق ؛ كذلك فرح الكبش ، ولم أكن أعلم أن في طبيعته ما يستطيع النهش والمزيق .
فرح الذئب حين مزق واتهمش ، لأن له في ذلك طعاما وشرابا ففداء ونماء ؛ إن من يلوم الذئب لافتراسه الكبش كان كمن يلوم النار لأنها تلتهم المشيم ، والسيل لأنه يندفق هداراً من قمة الجبل .
لقد قيل إن الدليل على وجود الله أقوى الدليل هو ما تراه في الكون من تنسيق جميل ؛ قلت : وهذا التنسيق ما معناه ؟
قيل : معناه الذي ليس له معنى سواه هو ما بين الأشياء من توافق كأنها فيه على اتفاق ؛ فضوء الشمس له طبيعة خاصة ، وشبكية العين لها طبيعة خاصة ، أعدت بحيث تتلقى ذلك الضوء ؛ ولو تغير ضوء الشمس قيد أملة أو تغيرت شبكية العين قيد شعرة ، لكان ضوء الشمس لنا عبثاً في عبث ، ولكانت أعين الإنسان والحيوان ضرباً من الإسراف والتبذير ؛ وكذلك قل في الذئب والكبش ، فلولا طراوة الكبش لكانت أنياب الذئب ومخالبه

زوائد لا تقتضيها الحكمة ولا يرتضيها حسن التدبير، فمن كمال الله وجلاله أن للذئب أنيابا تنهش الكبش ومخالب تمزقه وتفريه قال الإنسان : إني موجود لأني أفكر، فكان بقوله هذا فيلسوفاً . وقال الذئب : إني موجود لأني آكل وأفترس . فأثبت أن الفلسفة ليست وفقاً على الإنسان .

قلت للذئب : هلا سموت بنفسك فأشفقت على هذا للسكين ؟ فقال الذئب ساخراً : هكذا يسمو الناس ، لكن ما هكذا تسمو الذئاب . ومن الذئاب ما يسكن البيوت مع الناس ومنها ما يسكن الغاب .

ليس على الذئب في ذلك كله لوم ولا تثريب .

إنما يقع اللوم والتثريب على صاحبنا « الخروف » الذي استمرأ ضرب الخالب واستلذ وقع الأنياب ، دماؤه تسيل وعلى شفثيه ابتساماة ، ويبلغ الذئب فيه ويلعق وفي عينيه نظرة استسلام ورضى .

عبثاً ينبرى بقله كاتب ليدفع الأذى عن هذا الخروف ، وعبثاً يرتقى المنبر في سبيله خطيب ، لأن عدوان الذئب يصادف في نفسه القبول ، فيعدل الخروف من طبيعته أولاً ، وبعد ذلك

فليكتب الكتاب ليدفعوا عنه العدوان وليخطب الخطباء .

يضحكني آناً ويحزني آناً أن أرى أنصار الكرامة الإنسانية يتصدون للذئب قائلين : أهكذا يا ذئب يكون الإخاء وتكون المساواة بين عباد الله ؟ ولو أنصفوا لاتبهوا نحو الخروف وحقنوه بما يشيع في عضلاته الصلابة وفي لحمه المرارة ، ليخاطب الذئب في ثقة وإيمان كما خطر للذئب خاطر العدوان : التمس يا ذئب غيري إن لحمي كان مرأ .

قلت للخروف : هلا أخذتك النخوة يوماً ففضبت غضبة الكرام التي لا تقف عند حد اللغو والكلام ؟ هلا أخذتك النخوة يوماً فأبيت على الذئب هذا العدوان ؟

قال : كيف عرفتنى خروفاً وقد تخفيت في ثياب الرجال ؟

قلت : عرفتك في مائة موضع وموضع ، أسوق لك منها مثلين :

عرفتك حين أردت أن تخاطب سيدك الذئب يوماً ، فضغطت على القرطاس بحافر وأمسكت القلم بحافر ، وهزرت قرنيك تفكر كيف توجه إلى الذئب الخطاب ، بحيث تباعد بينك وبينه ، كأنه السليم وكأنك الأجرب ، وكأنك تخشى

عليه المرض إن دنوت منه ؛ أردت في الخطاب أن تجعل بينكما من الكلمات عدداً يضمن له الرفعة ولا يفسد عليك الضعة التي استمرت مذاقها ، إنك تعلم أن قوانين الغابة تجعل منك زميلين من ذوات الأربع ، فلو خاطبته بقولك « إلى الذئب » لما كان عليك لوم ولا عتاب ؛ لكنك استكبرته واستصغرت نفسك ، أعزته وأذلت نفسك ، عظمته وحقرت نفسك ، لأن الصغار والذلة والحقارة أصبحت جزءاً من طبيعتك ، لا تطمنن إلا بها ولا تجد نفسك إلا بينها ؛ عرفتك خروفاً حين رأيتك يوم أخذت تحمر الخطاب لسيدك الذئب ، وتمزقنيك مفكراً كيف توجه إليه الخطاب ، بحيث رضى كبريائه وتشيع في نفسك ذل العبيد ؛ فكتبت أول ما كتبت « إلى حضرة الذئب » ، ولكنك رأيت المسافة بينكما تكون بمثل هذا الخطاب أقصر مما ينبغي ، فلا يكفي أن تتجه بالخطاب إلى « الحضرة » مباشرة — و « الحضرة » معناها فيما أظن مكان الذئب لو خلا من الذئب — فلم تحتمل أن تواجه بخيالك مكان الذئب ، حتى وإن خلا منه ، مواجهة مباشرة لا تحميك دونها الموانع والحواجز ؛ فمحوت وكتبت : « سيدي حضرة الذئب » ؛ لكنك وجدت مرة ثانية أن الشقة بينكما لم تزل أقصر مما ينبغي ، فهزرت قرنيك ومحوت ثم كتبت :

« سيدي ومولاي حضرة الذئب » ؛ لكنك وجدت مرة ثالثة أن المسافة لم تزل بعد قصيرة ، وأنها ينبغي أن تطول بقدر المستطاع فمحوت وكتبت : « سيدي ومولاي حضرة صاحب الجمد الذئب » ، لكنك للمرة الرابعة لم ترض عما كتبت وطاف برأسك خاطر أزعجك وخوفك ، إذ قلت لنفسك : إن الذئب في الغاب كثيرة ، فكيف أسوي بين سيدي هذا وبين زملائه ؟ لا بد لي من علامة تعلو بذئي فوق الذئب ، ليزداد ضخامة فأزداد ضآلة ، فمحوت وكتبت « سيدي ومولاي حضرة صاحب الجمد ذئب الذئب وملك الغاب » ؛ وهنا افترت شفتاك عن ابتسامه رأيت فيها الغبطة والرضى .

وعرفتك خروفاً حين رأيتك ذات يوم وقد ارتديت بدلة من الحرير الأبيض الناصع ، وأخذ يرفرف على صدرك العريض رباط ملون بالأحمر والأبيض يخطف البصر بجمال ألوانه ؛ فقلت شاريك ، وغطيت بالطرش قرنيك ، وضربت الأرض بحافريك ، ثم إلى المقهى الفاخر أويت ، وعلى مائدة في صدر الصفوف استويت ، وصفقت تصفيقا ارتجت له الجدران .

— واحد قهوة يامنولي .

ليس من طبيعة لعتك أن تقول « واحد قهوة » ؛ ولو

تركت لنفسك لقلت « قهوة يا منولى » ، فإن أردت تحديداً عددياً قلت « قهوة واحدة يا منولى » ؛ إنك لا تقول لخادمك في البيت — وأنا الآن أفترض فيك ما افترضته في نفسك وهو أنك رجل لا خروف ، رجل له بيت وخادم — لا تقول لخادمك في البيت « واحد طبق يا حسن » بل تقول « طبق يا حسن » وإن أردت تحديداً عددياً قلت « طبق واحد يا حسن » .

لكن « منولى » جاءك سيداً غازياً ، وظن بك أول الأمر خيراً ، فحاول أن يخاطبك بلسانك ، ولكنه أخطأ في تركيب الكلام وترتيب الكلمات ، فانفتحت أمامك نخطته طرق ثلاثة وكان لك أن تختار لنفسك منها طريقاً :

الأول : أن تعلو بنفسك وتسفل به ، وذلك بأن تصححه حين يخطئ فتضع نفسك في موضع الذين يعلمون ، وتضعه في موضع الذين لا يعلمون ، وبالطبع هؤلاء وأولئك لا يستون .

والثاني : أن تعلو بنفسك دون أن تسفل به ، وذلك بأن تنطق بلغتك سليمة ، وله أن ينطق بها كيف شاء .

والثالث : أن تسفل بنفسك وتعلو به ، وذلك بالأبواب تبين له أنه أخطأ حرصاً على شعوره وإبقاء على عزة نفسه ، لأن الخطأ

— على أى نحو جاء — نقص وعيب ، فتخطئ أنت في كلامك ليرأ هو من العيب والنقص .

ولأمر ما ياخروف اخترت لنفسك هذا الطريق الثالث .
قل في ذلك ماشئت ياخروف ؛ قل إنها وداعة الحملان ؛ أو قل قل إنه التواضع ، وإن في التواضع عند الله رفعة الشأن ؛ أو قل إنه كرم النفس ، وليس الكرم بغريب على بنى القطعان .
قل في ذلك ماشئت ياخروف ، لكنه عندي علامة لا تخطئ على ما في نفسك من ذل العبيد ، الذى يستمرى ضرب المخالب ، ويستلذ وقع الأنياب .

لست أومن بالإنسان

وقع لي منذ سبع سنوات كتاب ، لهله أنفع ما قرأت من الكتب ، لأنه غاص بي إلى قلب الطبيعة ولبابها ؛ فقد كنت قبل قراءته لا أفهم إلا عن بني الإنسان دون ألوف الألوف من الكائنات التي تملأ فجاج اليبس وأغوار الماء ، فعلمني هذا الكتاب النفيس كيف أفهم عن الحيوان ما يريد . فلئن كان الإنسان يلوك لسانه يمينا ويساراً ويخط به في أعلى وأسفل ليرمز بهذه الحركات إلى معان ، فليس الحيوان بأقل قدرة منه في ذلك . يتناقل أفراد المعاني بهز الأذنان وتحريك الأهداب ... وقد كان علمي بلغة الحيوان موضوع فكاهة وسخرية من أصدقائي جميعا ، يلدعونني بنكاتهم كلما نهق حمار أو زقزق عصفور ، ولكني مضيت في دراستي لا يثنيني ما لقيت في الدرس من مشقة وعناء ، لأنني رأيت أنه إن جاز لمعاهد العلم أن تغني من طلابها زهرات أعمارهم في دراسة لغة قديمة درس أهلها وطواهم الزمن في جوفه العميق ، فخليق لواحد من بني آدم أن يعنى

* كتبت ردا على مقالات للاستاذ عبد النعم خلاف بعنوان « أومن بالإنسان » .

بلغات « أقوام » تُعاصرنا وتُعاشرنا وتبدل لنا وحشة العالم بهجة وأنسا . وأحمد الله أن كتب لي التوفيق فأعانتني على بلوغ ما أريد . فهأنذا أجلس إلى مكتبي ذات مساء ، والليل منشور الذوائب ضارب بجراحه ، والسكون عميق لا أسمع فيه إلا خفيفا خفيفا وهمساً خافتاً ، وهاتان فراشتان قد التقتا تحت مصباحي وأخذتا تسمران بحديث رائع جذاب ، لم أملك معه إلا أن ألقى الكتاب جانباً لأنصت ...

— لقد أنبأتني زميلة حديثاً عجيباً هذا المساء : أنبأتني أن كاتباً بليغاً من بني الإنسان قد رفع القلم يحول به ويصوّل في عشيرته من بني آدم ، ليقول في ورع وإيمان إنه يؤمن بالإنسان ! — وفيم كل هذا العناء ؟

— لأنه واحد من بني الإنسان ! يا ليت شعري ماذا تقول الأبقار لو تحركت بين حوافرها الأقلام ، وماذا تزعم الأطيّار لو كان تغريدها كلاماً من الكلام ؟

— وهل تؤمن البقرة إلا بفصيصة الأبقار ، والعصفور إلا بقبيلة الأطيّار ؟

وجاء برغوث يقفز حول الفراشتين جذلان فرحاً ، ويحوم فوقهما صاعداً هابطاً ؛ ولم أكن وأسفاه قد أتقنت لغة البراغيث

لما فيها من عسر وتعقيد ، ولكنني استطعت رغم ذلك أن ألتقط من حديثه مع إحدى الفراشتين ألفاظاً متناثرة علمت منها ما يريد .

قالت فراشة تحدث البرغوث الوثاب ، وقد ضاق صدرها بلهوه وعبثه :

— هلا اصطنعت يا أخى شيئاً من الجد في ساعة يجد فيها الحديث؟ ما كل ساعة للهو والطرب .

— وفي أى أمر خطير تتحدثان؟

— فى هذه النشوة التى أخذتك بغير مبرر معقول .

— وأى حافز للطرب أشد وأقوى من عالم فسيح خلقه الله لى

ألهو فيه وأمرح؟ ...

فقالت الفراشة الثانية :

— أخلق الله هذا العالم الفسيح لك أنت؟ وماذا تقول

إذن فى الإنسان الذى سخر الطبيعة بعقله الجبار؟!

— ومن تقصدين؟ أتريدى هذا الحيوان الذى ضمرت فيه

رجلان وطالت رجلاان؟ هل تعلمين لماذا خلق الله هذا الإنسان؟

هل تعلمين فىم سعى هذا المسكين آناء الليل وأطراف النهار؟

ليطعم فيجود لحمه فيصبح طعاماً شهياً للبراغيث . ألا ما أشقى عالم

البراغيث إن لم يكن بين صنوف الحيوان هذا الإنسان!!
وجاءت بعوضة تسعى ، تهز جناحها الصغيرين طياً ونشراً ،
وأخذت تدنو من الفراشتين قليلاً قليلاً ، ومالت برأسها تستمع
للحديث ، فلما استجمعت أطرافه اقتربت من الفراشتين ولبثت
بينهما صامتة . وحدث ما شئت عما ملأ نفسى من سرور حين
رأيت البعوضة تهتم بالكلام ، لأننى بلغت فى فهمها حداً بعيداً
بحيث لا تخفى على من ألفاظها خافية ، ولأننى عهدت فى البعوض
حكمة عجيبة وعلماً واسعاً ، لست أدرى أنى له بمثله ، ولا أفك
يوماً عن التفكير فى هذه الحشرة الغريبة ، فهل جاءها العلم مكسوباً
من تجاريب الحياة ، أم هو موهوب مفطور فى جبلتها؟

قالت البعوضة بعد صمت :

— فىم الحوار؟

فأجابت الفراشة المتحمسة ، ولعل حماسها مستمدة من

شبابها :

— فى آدمى زعم لقومه أن كل شىء فى الطبيعة يرقب أملاً

واحداً هو الإنسان ، كما ينتظر كبار البيت بلوغ طفل عزيز : كل

شىء فى البيت مسخر للطفل ، يضحك له إذا ضحك ، ويألم إذا

تألم ! ثم زعم لقومه — ويا هول ما زعم — أن الليل والنهار

والحيوان الآبد والداجن ، والأزهار والثمار والأنهار والجبال ،
وألوان الشفق في الأصائل والأسحار ... كل هذا وغير هذا من
صنوف ما يطوى الكون بين دفتيه ، إنما خلق للإنسان !!
قالت البعوضة :

— ومن يكون هذا الإنسان ؟

— قرد نهض على قدميه .

— أو يكون النهوض على الأقدام كفيلاً له بهذا كله ؟ هل
تعلمين يا عزيزتي أن هذا الإنسان أحدث صنوف الحيوان عهداً
بهذه الأرض ؟

— عرفت ذلك من زميلتي منذ دقائق .

— إن كانت كائنات الله قد خلقت لينعم بها الإنسان
وحده ، فمن ذا كان يستمتع بها قبل ظهوره ؟

فأجابت الفراشة العجوز في رزانه :

— قال كاتبهم هذا البليغ ، إن ذلك كله صورٌ جاءت قبله
لتزخرف له المسرح ... إنها حروف تتألف منها الرواية التي
يمثلها الإنسان !

— ويحه ! هل صورَ الخيال لهذا المرور أن الله قد زينَ
الطاووس بريشه الجميل ليُمَتِّعَ الإنسان ناظره ، ورقش الأفعى

لينظر إليها الإنسان وهي تتلوى وتتحوى في صندوقها الزجاجي
في حديقة الحيوان ؟ وماذا هو قائل في الجراثيم التي تفتك بيده
لتعيش ؟ تلك الجراثيم التي إن أفلح في نزع واحدة منها مما يسكن
في جوفه ، باضت له ألوف الأوف من صغارها ؟ ... لو أنصف
المسكين لعلم أن الله جلت قدرته أبدع قصيدة الكون العظمى
منظومة منغومة ، والإنسان بيت من أبياتها . إن سر الوجود
ليستعلن في الجرثومة الضئيلة كما يستعلن في الإنسان والقرد
والأفعى ! إنها أنغام تنسق كلها لتنشئ موسيقى الوجود ! وهل
يعظم الشاعر بيت واحد أكثر مما يعظم بقصيدة عامرة بالأبيات
والقوافي ؟

فقالت الفراشة العجوز :

— أراكم تعجبون وليس في الأمر ما يدعو إلى العجب ؟
لقد ذكرت أن الإنسان بين صنوف الحيوان طفل وليد . إنه
ما يزال يعبث في مهده ويلهو ، أفيكون عجيباً من الطفل أن
يتشبث بالأشياء ويمسك بها في قبضته صامحاً : هذا كله لي ،
لي وحدي دون سواي ؟ فاعفروا له هذه النزعة الصبيانية حتى
تعلمه الدهور أنه جزء من كلٍ عظيم ...

وهنا ففز البرغوث قفزات لفتت له الأنظار ، وقال :

حدثوني — نشدتكم الله — ماذا حدا بالإنسان أن يتبجح
فيزعم لنفسه ما زعم؟
فأجابت الفراشة المتحمسة :

— أغراء بذلك ما له من علم وأخلاق؟ وما يدري أنه بعلمه
يكمل النقص في غريزته وفطرته ، وأن أخلاقه حين تحلم بالمثل
الأعلى فهي في أحلامها دون ما يسود ممالك النمل والنحل من
أخلاق ! إن الحيوان لا يعرف العرى والجوع ، وأما الإنسان
بكل ما له من علم وأخلاق ... آه ! وددت لو خرج هذا الكاتب
البليغ من لغائفه « الصوفية » فيخوض في برد الليل ساعة فيرى
بني جنسه قد ألقاهم البؤس في العراء . حرمتهم الطبيعة القراء
اتكالياً على علم الإنسان وأخلاقه ، فعجز العلم والأخلاق أن يهيئتا
لهؤلاء الأشقياء وطاء أو غطاء ! وددت لو خرج الكاتب البليغ
لحظة من « تصوفه » الذي يدفئه بين جدران داره وفوق حشايا
مخدعه ليرى كم من بطون قومه قد باتت خاوية على الطوى ...
ولكنه لن يبارح هذا الغشاء « الصوفي » ليرى الحقيقة « عارية »
حتى يخرجه في رقاده واخز .

فقال البرغوث وهو يشب في جذل طروب :
— لكم منى هذا الصنيع . والله لأقضن مضجعه هذا

المساء ، لعل السهاد أن يحفزه على التفكير في هؤلاء الذين ينبتون
القمح حتى يملأ الأهرام ثم لا يأكلون ، والذين يزرعون القطن
حتى تغص به الخازن ثم لا يكتسون ... والله لأورقنه هذا المساء
لعله يعيد التفكير في هذا الإنسان الذي يقتل بعضه بعضاً بأدوات
من العلم ، ويهلك بعضه بعضاً بنزوات من الأخلاق ...

... قال ذلك البرغوث وانصرف ، وكان الليل قد انتصف ،
فأطفت سراجي وأويت إلى مخدعي ، وبي إشفاق على صديقي
« خلاف » من هذا البرغوث اللعين !

خلافُ يا صديقي ، لا تسرف ! أفيكون هذا الإنسان الذي
جارت به السبيل وحار الدليل جديراً منك بالإيمان ؟

نومًا غافلين عن الطبيعة بكل ما فيها أثناء الليل من جلال
وجمال؟

أم تكون هذه الجلسة الساكنة الهادئة الرزينة الرصينة ،
التي لا تكاد تعرف الحركة ، هي التي أغرت الرامزين أن يشيروا
بها إلى التأمل العميق والتفكير الدقيق ، فاتخذوا البومة شعاراً
لهذا كله؟

ذلك ما حدثت به نفسى حين نظرت إلى صورة مرسومة
على غلاف الكتاب ؛ لكن فكرة جديدة أوحى بها إليّ
فأشرقت عليّ بالأمس القريب ، إذ كنت أسير في الطريق
مفكراً فيما أنا فيه مما تضطرب له النفس عند أشد الناس ضبطاً
لنفسه وإمساكاً بزمام أعصابه ؛ فقد تعذرت عليّ متابعة فكرى
لكثرة ما في الطريق من أصوات ؛ وعندئذ خلّالى — وقد تعطل
الفكر — أن أعدّ هذه الأصوات ، وأخذ في تبويبها وترتيبها ،
فاذا بي أبلغ في عدّها المئات !

وبغثة قفرت قفزة خفيفة لو رآها الناس لقالوا مسّه الجنون ،
وصحت لنفسي — كما فعل أرشميدس في زمانه — صحت قائلاً :
وجدتها وجدتها ! وجدت العلة في اتخاذ البومة شعاراً للحكمة
ورمزاً لبعده النظر ؛ العلة هي الصمت ؛ بل وجدت العلة ، لماذا

حكمة البوم

تتخذ البومة شعاراً للحكمة وبعد النظر ؛ تراها مرسومة على
الكتب أحياناً ليدل الناشر على ما تحويه كتبه في بطونها من
حكمة خالدة ؛ و تراها مصورة في إعلان تذييعه الحكومة الإنجليزية
في بلادها هذه الأيام ، لتحفز شعبها على الادخار ، تمثلاً — فيما
ينطوى عليه الادخار من حكمة — بالبومة التي شهد لها الناس
منذ الأزل بصدق النظر .

وحدثت أنى كنت أقرأ كتاباً منذ أمد قريب ، وكانت
البومة على غلافه شعاراً للناشر ، فسألت نفسي : ليت شعرى
لماذا اتخذ هذا الطائر المشؤم رمزاً للحكمة ؟ أ يكون ذلك لهاتين
العينين المفتوحتين اللتين لا ينسدل عليهما الجفنان في ظلمة المساء ،
كما تنسدل الأجنان عند عباد الله من إنس وجان ؟ أ تكون هاتان
العينان المفتوحتان قد أغرتا الرامزين أن يتخذوا من دوام الإبصار
دليلاً على سداد البصيرة وبعد النظر ؟

أم يكون ذلك لما تعانيه البومة في الليل من سهر ورعاية
للنجوم بما فيها من همٍّ وتسويد ، حين يكون الخليقون في مخادعهم

أفقرت بلادنا وأصابها العمم آلاف السنين ، لا تنجب المصلحين
العاملين ؛ العلة هي هذا العجيب والضحيج ، هي هذه الجلبة
وهذا الصياح !

أى والله ، لقد صدق من قال إنه إذا كان الكلام من فضة
فالسكوت من ذهب ؛ وأنا أريد هنا بالكلام والسكوت أوسع
ما يفهم من هاتين اللفظتين من معنى ؛ فإذا فهمت من اللفظتين
معناها الواسع ، أدركت ما أريد أن أسوقه إليك حين أنبتك
أن الصمت هو السر في حكمة البوم ، وأن الجلبة هي التي أعقت
بلادنا عن إنجاز المصلحين العاملين .

فمن باب الصمت أن تختار لجلوسك مكاناً مستوراً تخلو فيه
إلى نفسك ، أو إلى من تتحدث إليه من الأصدقاء فيكون لك
بهذا التخفي وجود واضح بارز ؛ ومن باب الجلبة والصياح أن
تجلس مكشوقاً على طوار الشارع في المقهى ، حيث تصبح جزءاً
من بضائع الدكاكين وحركة المرور !

ومن الصمت أن تختار للملابسك وأثاث منزلك ألواناً خافتة
هادئة يرتاح إليها البصر ، كما أن من الجلبة والصياح أن تختار
هذه الأشياء من ذوات الألوان الصارخة الزاعقة التي تلفت الأنظار
رغم الأنوف .

ومن الصمت أن تعلن عن عيادتك إن كنت طبيباً ، أو
مكتبك إن كنت محامياً ، أو دكانك إن كنت تاجراً ، بلافتة
صغيرة متواضعة ، كما أن من الجلبة والصياح أن تعلن عن نفسك
بلافتة طويلة عريضة تسد على الناس مسالك الطريق ، واذكر
دائماً أن ارتفاع الصوت قد يدل على تفاهة الصائت ؛ فالكلب
الذي ينبح لا يعرض — كما يقول الإنجليز — وكلما ازدادت الشاة
صياحاً ، قل على ظهرها الصوف — كما يقول الإنجليز كذلك —
والضفدعة الهزيلة الضئيلة تملأ الآفاق ضجة وندبة .

يستحيل أن تكون من الصائحين ومن العاملين في وقت
واحد ؛ ويستحيل أن تكون من الصائحين ومن المفكرين في
وقت واحد ؛ فقد يتعذر أن يجتمع الكلام والعمل ، لأن الفكرة
إذا طافت برأسك فصحت بها كلاماً ، انتهى بذلك أمرها ، أما
إذا حبستها في نفسك ؛ وأغلقت دونها صدرك بمغاليق الصمت ،
فقد تنفجر في صورة عمل عاجلاً أو آجلاً .

كذلك محال أن تضح وتفكر في آن معاً ؛ هلا سألت
نفسك يوماً : لماذا اختار اليونان لأهتهم جبل الأوليب ، ولم
يسكنوهم داراً في ساحة السوق ؟ وهل جاءك في الأساطير أن
« جوبتر » كان يخلق الكائنات بإماعة خفيفة دون أن ينطق

إلا قليلاً ، أو يتحرك إلا سيراً ؟

هل سألت نفسك يوماً : لماذا يصوم غاندى عن الكلام يوماً في كل أسبوع ؟ وهل وقفت دقيقة أو دقيقتين كلما قصوا عليك سيرة النبي ، فتنال : لماذا اختار الله لنبيه الصحراء الصامتة منبتاً ، ولماذا اختار له مغارة معزولة في سكون الجبل مهبطاً لوحيه ؟

أين يسكن الفيلسوف فيما تظن ؟ أيسكن برجاً — سواء كان البرج من عاج أو خشب — أم يسكن غرفة تطل بشرقتها ونوافذها على العتبة الخضراء ؟

ألست تؤثر للعالم الباحث أن يعتزل في مكان هادئ بين كتبه وأنايبه ، ثم ألست تؤثر للشاعر أن « يجوب وحيداً كالسحابة » — كما يقول « وردزورث » شاعر الإنجليز ؟

أيهما أقرب إلى الشعور الديني الصحيح فيما تظن : رجل فتح المذياع على آخره ساعة تلاوة القرآن ، فجعل من القراءة ضجة ترج الهواء رجاً ، أم رجل جعل التلاوة همساً في أذنه لا يكاد يسمعه من يجلس إلى جواره ؟ أتخسب أنه من قبيل المصادفة العمياء أن تواضع الناس في كل زمان وفي كل مكان وفي جميع الأديان أن تكون بيوت الله — مساجد كانت أو

كنائس أو معابد أو ما شئت لها أن تكون — خافضة الضوء خافضة الصوت ، إذا أضيئت فبالقنديل الضئيل ، أو ما يشبهه ، وإذا تكلم فيها متكلم فهمسا ، أو مشى على أرضها ماشٍ فعلى أطراف أصابعه ؟ ثم هل يخلو من المعنى أن يوعد المؤمنون جنّة لا يسمعون فيها لقواً ؟

أنت أقرب إلى الله في صمتك منك في صخبك وضجتك ، ولهذا اختار المتعبدون صوامع في الجبل ، ولم يختاروا الميادين الفخمة في كبريات المدن !

خذها عن نصيحة ناصح : ضع ثقمتك فيمن يتلعم إذا تكلم ، أضعاف أضعاف ما تضعها فيمن يكثر من الجدل والنقاش ؛ فالأرجح أن ينتج الأول عملاً ينفعك وينفعه ، والأرجح ألا ينتج الثاني شيئاً ذا غناء ؛ ولعل « فورد » — صاحب الثراء الضخم وصاحب السيارة المعروفة — لعله لم يكن محسناً فقط حين جعل من مبادئه أن يبدأ في مصانعه باستخدام الأبكم ، بل لعله كان في ذلك رجلاً من رجال الأعمال الذين حالفهم صواب الرأي ؛ فمع الأبكم إنتاج وعمل ، ومع الثروة مضيعة للوقت والمجهود ؛ ورحم الله مالكا حين قال : « لا أحب الكلام إلا

فيا تحته عمل « ؛ ورحم الله ابن حنبل حين قال : « لا يفلح صاحب كلام أبدا » .

هل تدرى ما معنى « تفكير » ؟ معناه الدقيق مناقشة الإنسان لنفسه ، يلقي على نفسه سؤالاً ويحاول عنه الجواب ؛ فإذا قلت « إني أفكر » كان معنى ذلك على وجه الدقة أنى سألت نفسى سؤالاً أو أسئلة أحاول عنها الجواب ؛ ولا يكون ذلك إلا إذا خلوت لنفسك وساد حولك الصمت .

وإنه لمن أعجب العجب أن يشاء الله لأعظم موسيقى أنجبته الدنيا — أعنى يتهورقن — أن يصاب بالصمم ، فلا يسمع حتى موسيقاه ! ترى هل ساعده العالم الصامت الذى عاش فيه على خلق تعريده وألحانه ؟

دارت فى رأسى هذه الخواطر ، ثم أراد الله أن يزيدنى بأساً على بأس ، فذكرنى بالمكتب والبيت والشارع ...

دخلت مكتباً فى ديوان حكومى لأقضى بعض شأنى ، فوجدته يموج بالزائرين الصائحين الصاخين ، فقلت : يستحيل أن ينتج هذا المكان شيئاً .

ودخلت دارى فوجدتها مفتحة النوافذ ساطعة الضوء كثيرة الصباح ، فقلت : يستحيل أن تكون هذه الدار بيئة

صالحة لتكوين رجل صامت عامل .

ومشيت فى الشارع فسمعت عجيباً وضجيجاً وجلبة وصياحاً ، فقلت : يستحيل أن يكون هذا مكاناً من بلد يعرف أهله العمل والإنتاج .

اللهم رحماك ! والله لو انفتحت لى أبواب السماء (ليلة القدر) ، ما تمنيت لأمتى إلا شيئاً واحداً : أن يهبها الله شيئاً من حكمة اليوم .

إشباعها بأسرع الطرق ، فلماذا يتأني دقيقة أو دقيقتين ليفكر هل أسرع الطرق لإشباع رغبته مشروع أو غير مشروع ، فيه الإنصاف لغيره أو فيه الإجحاف عليهم ؟ .

خذ هذا الولد المدلل الذي استبد في بيته ، وضع على شفته العليا شاربا ، يكن لك الرجل المصرى فى شتى وجوه الحياة ؛ هو لا يعنيه قلامة ظفر أن يعمل بحيث لا يجاوز حدود الحكمة والعدل والإنصاف ؛ إنه رجل لا يعرف إلا أن يسلك لغايته أقصر السبل ، ولتكن السبل المختارة ما تكون ؛ ومن هنا كان الطغيان الضارب بأطنابه وكان الفساد ، ولن أعتذر للقارىء عن كثرة ما قلته وما سأقوله ما استطعت أن أحمل القلم ، عن الطغيان والظغاة ، فذلك عندى ذنب الأنفى ورأسها .

وعلى نقبض ذلك ما نشأت عليه الفتاة ، فقد أدركت منذ اللحظة الأولى لحياتها الواعية أنها « بنت » وأنها بالقياس إلى شقيقتها الذكر لا تساوى شرورى فقير ، وإذا فلا بد لها من إقامة الدليل على أنها إنسان — ولا تَقُلْ إن هذه بديهية لا تحتاج إلى برهان ، فأنت فى كثير جداً من الأحيان مضطر إلى البرهنة على أنك إنسان كغيرك من بنى الإنسان — أى والله ، أدركت البنت منذ اللحظة الأولى لحياتها الواعية ألا مندوحة لها عن إقامة

الدليل على أنها إنسان كما خوتها الذكور ، وإذا فلتفكر مرتين قبل أن تنطق ، حتى لا يقال : أنتى وتنطق بالهراء ؟ أحشفاً وسوء كيلة ؟ ولتتدبر الأمر مرتين قبل أن تعمل ، فيكفيها من مصائب الزمن أنها أنتى ! وهكذا ينشأ لك من هذه الفتاة إنسان أقرب ما يكون إلى الحاكم الذى يضبطه برلمان يحاسبه على ما يقول ويفعل ؛ فلئن كانت ظروف الأسرة المصرية قد خلقت من الولد طاغية مستعبدا ، فقد خلقت هذه الظروف نفسها من البنت إنسانا عاقلا متزنًا صائب الرأي شديد النظر .

وتعليل آخر لتفوق المصرية على المصرى : أن المرأة أقرب إلى الحكم بغيريتها من الرجل ، والرجل أقرب إلى الحكم بمنطق العقل من المرأة ؛ فلو عاش رجل وامرأة فى ظروف سووية تهذب الغريزة والعقل المنطقى معاً ، لكان من العسير أن تحكم لأحدهما على الآخر ، إلا أن تفوق فى بحث فلسفى عويص فى أيهما آمن دليلاً : الغريزة أم منطق العقل ؟ أما وظروف الحياة فى مصر ليست مما يعين العقل على التفكير بمنطق سليم ، إذ توشك ألا تجد فيها شيئاً تنبنى فيه النتائج الصحيحة على مقدمات صحيحة ، أما وظروف الحياة المصرية تفعل هذا الصنيع فى منطق الرجل ، ولا تفسد شيئاً من غريزة المرأة ، لأن الغريزة أرسخ فى النفس

أساساً وأعمق جذوراً من أن تنال منها الزعاع ، فهذه الغريزة عند المرأة لم يعد يقابلها شيء عند الرجل ؛ أمامك في كفة الميزان غريزة فطرية وفي الكفة الأخرى عقل مختل فاسد ، فقل بعد ذلك ما شئت في صدق الغريزة دائماً أو خطئها أحياناً ، فهي على كل حال شيء يقابله لا شيء — أستغفر الحق ، بل يقابله ما هو شر من لا شيء لأن الفساد خير منه العدم .

أعود أيها القارئ فاستحلفك الذمة والضمير والإخلاص للوطن ، أن تتدبر الأمر في روية وهدوء ؛ فإن رأيت صواباً ما زعمته لك ، فاستجمع قواك وتوكل على الله ، وانزل عن سلطانك لمن هي أحق منك بالسلطان .

أعذب الشعر أصدقه

زعم ناقد عربي قديم أن أعذب الشعر أكذبه . وسواء كان هذا الناقد جاداً في زعمه أو هازلاً ، فقد جرت عبارته مجرى القول الصادق الجميل ، وكان لها أثر عميق في توجيه الشعراء ، وفي تكوين الذوق الفني عند القراء . فماذا يريد « بالكذب » في الشعر ؟ هل كان من السذاجة بحيث أغراه السجع ، فصرفه عن دقة الحكم وصدق الرأي ، وأثر أن يتمتع سماعه بإيقاع اللفظتين « أعذب » و « أكذب » فأرسل العبارة لاهياً عابثاً ؟ ربما كان الأمر كذلك ، لأن العناية بالألفاظ كثيراً ما تظني على دقة التفكير .

أولعله أبصر من ذلك وأعمق ، وأراد بعبارته الموجزة أن يقرر أن العيش مُرُّ أليم ، وأن خيال الشاعر كفيل أن يخلق عالماً جديداً حلواً مستساغاً ، يلوذ به فراراً من دنيا الحقيقة والواقع ؛ فهو كلما اشتد بعداً عن الواقع فيما يصور ، كان أكثر توفيقاً في تحقيق الغرض الذي يقصد إليه .

وخير الفروض إنصافاً له واعترافاً بعمق نظره ، أن يفسر

إشاره للكذب في الشعر بأنه إشار « للذاتي » دون « الموضوعي » في عالم الفنون ؛ فنحن إذا حللنا حمرة الشفق مثلاً ، كان معناها إحساس العين باللون حين يتجه الرائي ببصره نحو السماء ، فليست الحمرة الجميلة كائنة في الشفق ذاته ، ولكنها صنيفة عين الإنسان ، هي التي خلقتها خلقاً حين تلتفت ضوء الشفق ؛ وإذا فليس الشفق أحمر إلا لأن عيناً تنظر إليه ، وهكذا قل في سائر الصفات الثانوية التي تؤلف شطراً كبيراً من حقائق الأشياء . وإن كان الأمر كذلك ، فإذا نطلب من الشاعر ؟ أنطالبه أن يتقصى بعقله حقائق الأشياء في ذاتها ليصفها كما هي في الواقع ، مستقلة عن حواس الإنسان ؟ إنه لو فعل ، كان بهذا الوصف الموضوعي أقرب إلى الفلاسفة والعلماء منه إلى أصحاب الفن والشعراء ؛ أم نطالبه بأن يصف دنياه كما تقع من نفسه ، مهما تكن هذه الصورة الذاتية بعيدة عن الواقع ؟ نعم ، إنه ينبغي للشاعر في رأى الناقد ألا يكثر بالأشياء في ذاتها ، بل واجبه أن يصورها بالنسبة إليه ، ولهذا كان أعذب الشعر عنده أ كذبه .

وأياً ما كان غرضه ، فلسنا نحج لرأيه أن يشيع ، ونؤثر في ذلك رأى الناقد من أدباء الانجليز ، الذين يتخذون الصدق مقياساً لجودة الشعر . وسأسوق في إيجاز شديد رأى ناقدين

يقعان من الأدب الإنجليزى في أعلى منازلها ، وهما « ما كولى » و « جون رسكين » .

أما « ما كولى » (١٨٥٩ - ١٨٠٠) فقد كتب كثيراً في نقد الشعراء والناثرين ، ومن ذلك كتاب رصده لنقد الكاتب الشاعر « أدسن » ، فجاء في سياق البحث أن القائد الانجليزى المعروف « مولبرا » حين ظفر بالنصر في موقعة بلنهم (وقعت في أغسطس ١٧٠٤) ، أخذ الشعراء الانجليز ينظمون القصائد في مدحه ، والإشادة بنصره ، ولكن التوفيق الفنى أخطأهم جميعاً ، لأنهم أخذوا يمتدحون في « مولبرا » أنه صبح الأنهار ، وخضب السهول بدماء الأعداء ، فلم يصادف هذا القول وأشباهه قبولا من نقدة الشعر ، وأحس الناس أن هذه الواقعة الفاصلة ينبغي أن تلمس سبيلها إلى الخلود عن طريق الشعر الرفيع . لذا لجأ بعض الوزراء إلى شاعر فذ ، هو « أدسن » وطلبوا إليه أن يجود بقصيدة من شعره الخالد في « مولبرا » اعترافاً بفضله ، ففعل ، وصادف عند النقاد كل إعجاب ؛ وأشد ما أثار إعجابهم سطر بلغ في رأيهم ذروة الشعر ، يشبه فيه مولبرا بالملك المدبر في عاصفة القتال الهوجاء ، فالدنيا ترحم من حوله ، وهو رصين رزين يفكر ويدبر ؛ فقال « ما كولى » تعليقا على هذا السطر

رأيه في وجوب الصدق في الشعر ، إذ قال ما ملخصه :
في رأينا أن أهم ما تمتاز به قصيدة «أديسن» هو أنه اصطنع
في شعره رصانة الرجولة ورزانة العقل الحكيم ، ونبذ الاغراق
في الخيال نبذاً محموداً . إن الشاعر العظيم «هوميروس» قد
تغنى بالحروب قبل أن تصبح الحروب علماً وفناً ، فكان إذا دبت
العداوة في عهده بين مدينتين صغيرتين ، بعثت كل منهما بأبنائها
جميعاً إلى ساحة القتال لا يفقهون من وسائل النظام شيئاً ، وكل
سلاحهم أدوات الصناعة شذبوها وهياؤها على نحو ساذج غليظ ؛
وكان كل فريق من المتحاربين يقوده نفر قليل من الرؤساء
البارزين الذين مكنتهم الثروة أن يظفروا لأنفسهم بعدة حربية
جيدة متينة وجياد كريمة وعربات حربية ، كما أتاح لهم الفراغ
أن يدربوا أنفسهم على القتال تدريباً طويلاً . فكان الموهوب
من هؤلاء القادة بقوة ممتازة وشجاعة نادرة ، أشد عنفاً وأعمق
أثراً في ميدان الحرب من عشرين رجلاً من أوساط الرجال ،
فهو يستطيع بقوته ورشاقته وشجاعته ومهارته في الرماية ، أن
يكون له أبلغ الأثر في تقرير مجرى القتال . هكذا كانت المواقع
أيام هوميروس : للرجل الواحد الممتاز شأن عظيم في رجحان
كفة النصر في هذا الفريق أو ذاك . فمتى يكون هوميروس

صادقاً في شعره حين يصور الأبطال ؟ إنه يصدق لو رسم المحارب
البارع في صورة العملاق الجبار ، الذي يقوى على قذف رواسخ
الصخر ، وثقال الحراب والرماح . إنه حين صور «أخيل» وقد
أدّرع بعدته الحربية ، وحمل رمحه الذي لا يقوى على حمله سواه
من الرجال ، فساق أمامه جيوش الأعداء جميعاً ، لم يزد بذلك
على أن بالغ مبالغة جميلة لصورة المحارب الباسل كما يتصوره أهل
زمانه ، يصرع بيمينه الأعداء رجلاً في إثر رجل ، في جراءة
ومهارة وقوة . ولو اختار هوميروس لبطله صورة الرجل الرزين
البارع في رسم الخطط الحربية في غير حاجة إلى قوة عضلية
ومهارة في الرماية وركوب الخيل ، لكان شعره كاذباً لا يستحق
منا التقدير والاعجاب . وإن الشعوب البدائية كلها لتفهم البطل
على نحو ما تصوره اليونان وصوره هوميروس ؛ فيروى عن
المالِك أنهم حين رأوا بونابرت أخذتهم دهشة عميقة ، أن
يكون أعظم قادة أوروبا رجلاً لا يزيد طوله على خمس أقدام ،
ولا يحسن ركوب جواده ! فأين هو من بطلهم مراد بك الذي
يمتاز بضخامة الجسم وقوة العضلات ومهارة التصرف في الرمح
والجواد ؟

كان هوميروس إذاً صادقاً حين صور الحروب كما صورها ،

وحين رسم الأبطال كما رسمهم ، ولكن شعراءنا حين مجدوا « مولبرا » قلدوا هوميروس ، فجاء تصويرهم كاذباً يمجج الذوق السليم . فهذا أحدهم يصف الجراح الدامية التي أنزلها مولبرا في أجساد الأعداء ، وهذا آخر يزعم أن « مولبرا » كان يرمى الرمح فيحصد الأعناق ، وهذا ثالث يقول إنه استطاع وحده أن يسوق أمامه ألوف الرجال وأن يصبغ الأرض بالدماء . ولكن هذه الصور جميعاً إن امتدحناها في هوميروس ، فإنما ننكرها من هؤلاء الشعراء .

فلما أراد « أدِسْن » أن يمجج « مولبرا » كانت براعته أن تخلص من هذه الصور التقليدية ، إذ نجد في بطله صفات أخرى ، هي النشاط والحكمة والعلم الحربي وورباطة الجأش التي مكنته أن يظل في معمة القتال الصاخبة ، محتفظاً بقوته العقلية التي يختبر بها الموقف ويصرف بها الجنود .

فالصدق عند ما كولى — كما ترى — هو مقياس الشعر الصحيح .

وكذلك يرى « چون رسكين » (١٨١٩ — ١٩٠٠) أن الصدق أساس لجودة الشعر . ولكن ماذا يعنى بالصدق ؟ إن الشاعر إنسان ثور فيه العواطف فآرة حيناً عنيفة حيناً آخر .

فهو حين ينظر إلى الأشياء لا ينظر إليها نظر العقل الفلسفى المجرد ، بل إن عاطفته لتصبغ نظره هذا بصبغة خاصة ، راضياً كان أو كارهاً ؛ وكل قارىء فى وسعه أن يذكر حالات من حزنه وفرحه ، فيقارن بين نظره إلى الدنيا فى كلتا الحالتين : هى باكية فى عينه إذا حزن ، باسمة إذا ابتسم ؛ فالشاعر الطروب حين ينظر إلى زهرة صفراء قد تدفعه العاطفة أن يصورها كأساً من ذهب ، وحين يسمع خرير الماء يصور الماء مُغرَداً شادياً ، والشاعر الحزين يسمع صوت العاصفة يظنها مزججة عاصبة ... أفنقول إن هذا قول كاذب لا يصور الحق ؟ .

يقول رسكين إن الخطأ نوعان : خطأ الخيال المرید ، الذى يختار بنفسه الصورة الخيالية وهو عالم أنها خيال ، ولا يتوقع من القارىء أن يختلط عليه الأمر فيصدقها على أنها الحقيقة الواقعة ، كمن يصور الهلال سفينة من فضة أثقلتها حمولة من عنبر . وخطأ سببه اضطراب المشاعر اضطراباً يحول دون الحكم الصحيح ، كالذى يرى البحر يلتهم الغرقى أثناء العاصفة ، فيصوره وحشاً ضارياً أراد أن ينتقم ؛ فالعقل فى مثل هذه الحالة يضيف للشئ صفات الأحياء ، لأن قواه العاقلة قد هدَّها الحزن وأوهنتها قوة المشاعر . وقد تعود الناس أن يعدوا هذه الأباطيل تصويراً شعرياً

جيداً ، وأن يظنوا أن الحالة النفسية التي تميز أكاذيب العواطف
جديرة بالشاعر . ولكن رَسَكِنْ يرفض ذلك ، ويعتقد أن
الشعراء الفحول يأبون على أنفسهم هذا الضرب من الكذب ،
وأن شعراء المرتبة الثانية هم الذين يميزون هذا ويسيعفونه . وهنا
يسرع رَسَكِنْ فيثبت رأياً جديراً — في نظري — أن ننشره
بكل قوة هنا في مصر ؛ وهو أن شعراء الطبقة الأولى وحدهم هم
الذين يستحقون منا العناية ؛ وأما مَنْ دونهم فليس خليقاً بنا أن
ننفق في قراءة شعرهم وقتاً ولا مجهوداً . وفيه هذه التضحية وأمامنا
من الشعر الجيد ما يملأ أيام الحياة ؟ « إنها جريمة ترتكبها في
حق نفسك أن تفنى شيئاً من فراغك في شعر لم يبلغ من الجودة
حدها الأقصى . ولست أقبل هذه الأعذار التي يرددها القائلون
بأن صفار الشعراء لهم يوم ينبغون فيه ، وأن ما يكتبونه فيه بعض
الخير . وعندي أنه إذا لم يكن في الشعر كل الخير فلا خير فيه .
فليشعل صفار الشعراء النار في إنتاجهم ، ولينتظروا اليوم الذي
يجوّدون فيه » .

إن مَنْ يستسبح الخطأ العاطفي شاعر خارت قواه حتى لم يعد
يقوى على ما هو بصده ، فطنى عليه هذا وأزاع بصره عن الحق .
إننا نريد العاطفة لا لتصرعنا بل لنغالها فنغالها ، وهذه هي سمة

العبقرية الشعرية وعلامة النبوغ الفني . نم إنها منزلة لا بأس
بها أن تبلغ العواطف من القوة ما يغرى العقل بتصديقها ، ولكن
منزلة أسمى من هذه وأرفع ، أن تقوى العاطفة ويقوى العقل
معها ، ليقرر سلطانه أمام طغيانها ، أو ليؤازرها مؤازرة لا تنتهي
بضعفه واندحاره ؛ بهذا يبلغ الشاعر أعلى مراتب النبوغ .

فالناس عند رَسَكِنْ ثلاثة رجال : رجل يدرك الحق خالصاً
لأنه لا يشعر ، فيرى الوردة وردة لا أكثر ، لأنه لا يحبها حباً
يزيد على حقيقتها شيئاً ، وهذا بعيد عن الشعر لا يقع منه في كثير
أو قليل . ورجل يدرك إدراكاً باطلاً لأنه يشعر ، فالوردة قد
تكون في نظره أى شىء إلا أنها وردة ، فتكون نجماً ساطعاً ،
أو حجراً كريماً ، أو غادة راقصة ، ولكنها لا تكون وردة
أبداً ، وهذا هو شاعر الطبقة الثانية . ورجل يدرك إدراكاً
صحيحاً على الرغم من شعوره القوي ، فيرى الوردة وردة دائماً ،
ولكنه يضيف إلى حقيقتها ما تزدهم به مشاعره ، وهذا هو
شاعر الطبقة الأولى .

فمظمة الشاعر إذاً مرهونة بعاملين : دقة الشعور ، والسيطرة
عليه ؛ فهو لا ينطق إلا بما يحس ويشعر ؛ فالشاعر الجيد قد يصف
البحر الهائج بالغضب ، وكذلك يفعل الشاعر الرديء ، ولكن

الفرق بينهما أن هذا الشاعر الرديء لا يستطيع أن يصف البحر
إلا غاضباً . وأما الجيد فقادر على ضبط العادات الفكرية وأخذ
نفسه بالحقيقة الخالصة .

وهكذا يرى الناقد المثقف البصير أن أعذب الشعر أصدقه ،
فليس مع الشعراء .

قوة الخيال

نقد أديبٍ أديباً منذ حين ، فقال إنه مستطيع لو حلل كلامه
أن يردّه إلى أربابه جزءاً جزءاً ؛ وقرأتُ هذا فقلتُ لنفسي :
يا ليت شعري : أين الكائن الحيُّ الذي لا يستطيع العلمُ أن
يرجعه في الخباير إلى أصوله عنصراً عنصراً ؛ ووقعت عيني حينئذ
على أناملي ممسكة بالصحيفة ، فقلت : وداعاً أيتها الأنامل ، فلم
تعودي بعد اليوم بأناملي ؛ وكيف تكونين ، وهذه الكيمياء
تتربص بك الدوائر لتجملك إلى معاملها فتخلصَ إلى نتيجة
محتومة ، هي أنك تأليف من عناصر عندها أنباؤها ؛ بل وداعاً
أيتها النفس ، وأنتِ مني سرٌّ وجودي ! فما أنتِ سوى حلقات
متتابعات من المشاعر والخواطر ، أستطيع أن أرد كل حلقة منها
إلى أصل مما وقعت عليه الحواس !

ثم شاء الله لي الهداية بعد حين لم يطلُ ، فما هي إلا دقائق
معدودات حتى تناولت كتاباً كان ملقىً أمامي ؛ ودسستُ فيه
إصبعي ، فإذا بمقال منشور ، كاتبه إمْرُسُنْ ، وعنوانه « شيكسبير ،
أو الشاعر » ، فوجدته يقول ما ملخصه :

يتميز عظماء الرجال بسعة آفاقهم وامتدادها أكثر مما يتميزون بالأصالة والابتكار؛ فإذا اشترطت للنبوغ أصالة قوامها أن ينسج النابيعُ ديباجته مما يستخرج من أمعائه كما تفعل العناكب، وأن ينشئ لبنائه اللبِناتِ إنشاءً من طين يخلقه من جوفه خلقاً، فلن تجد بين النابعين الفحول عظيمًا واحدًا جديرًا منك بهذا اللقب؛ إن أنبع العباقرة هو أكثرهم دِينًا لغيره من الناس... إن العبقري لا يستيقظ ذات صباح مشرق جميل فيقول: «أنا اليوم مليء بالحياة، سأخذ سمتي نحو البحر لأخلق من العدم قارة جديدة، إني اليوم سأربّع الدائرة، وسأجد للإنسان طعاماً جديداً...»، كلا، بل إنه ليجد نفسه في خضم يضطرب من حوله بالأفكار والحوادث، فيندفع في تياره مع سائر معاصريه؛ إنه يقف ليشخص ببصره حيث تشخص أبصار الناس جميعاً، ويتجه إلى حيث تشير أيديهم... إني لأكاد أجزم بأن أعظم مراتب النبوغ لا تتركز على الأصالة قطعاً، بل عظمة النبوغ في أن يكون الرجل مستقبلاً للأثار من حوله وحسب... إن شيكسبير في حقيقة أمره مدينٌ لغيره في كل جوانب نبوغه، وقد كان قادراً على استخدام كل شيء وقعت عليه يده؛ فأنت تعلم كم استعار إذا قرأت هذا البحث المجد الذي قام به «مالون» في تحليل رواية

«هنري السادس»، إذ قال: «إن مجموع أسطرها ٦٠٤٣، من هذه الأسطر ١٧٧١ كتبها بنصها أسلافٌ لشيكسبير، و٢٣٧٣ كتبها بلفته، ولكنها من أفكار السابقين، ولا يخلص له سوى ١٨٩٩ سطرًا».

إن لشوسر أثرًا عميقًا في الأدب الإنجليزي القديم بأسره، كما أثر — في العصر الحديث — في «بوب» و«درين» وغيرها من الكتّاب الإنجليز؛ فيالها من تربة خصبة أطمعت كل هؤلاء الآكلين، ولكن شوسر هذا كان «مستعيراً» عظيمًا، فقد كان يأخذ عن غيره كل أدبه، حتى إن بعض إنتاجه ليس يزيد عن الترجمة الصريحة.

إن شوسر يسطو على غيره، ولكنه يعتذر عن ذلك بقوله إن ما يأخذه لا قيمة له حيث يجده، ولكن له أعظم القيمة حيث يضعه من جديد؛ ولقد باتت قاعدة في الأدب أن الأديب إذا برهن مرة على أنه قادر على الكتابة المبتكرة فله الحق بعد ذلك في أن يسطو ما يشاء على إنتاج الآخرين؛ ذلك لأن الفكر ملكٌ لكل من يستطيع أن يستخدمه استخداماً حسناً، وأن يضعه وضعاً ملائماً. إن الفكر المستعار يظل بغيضا حتى تعرف ماذا تصنعُ به، وعندئذ يكون منكاً لك.

تلك خلاصة موجزة أشد إيجاز لما قرأت لأمرسُن في ذلك
المقال ؛ ولكن مالى ولنقاد الأدب في هذا ، وهام أولاء علماء
النفس يجمعون على أن الخيال المبتكر ليس لمبتكره فيه إلا فضل
التأليف بين عناصر موجودة فعلاً ؛ إن قوة الخيال هي أن تجمع
أشئانا متفرقات مما حولك ، فتنفخ فيها من روحك فإذا هي خلق
جديد ! إن قوة الخيال هي أن تربط العلاقة بين شيئين أو مجموعة
من الأشياء لم يسبقك إلى ربطها على هذا النحو إنسان ؛ فقد
كان بنيامين فرانكلن ذا خيال بديع حين أدرك الرابطة بين البرق
والكهرباء ، ولم يكن — بالطبع — خالقا للبرق ولا للكهرباء ؛
وكان جيمس وات ذا خيال مبتكر حين كشف عن الصلة بين
البخار في وعاء الشاي وبينه إذا وضع في قاطرة تنساب على قضبانها
فتربط أطراف العالمين ؛ وكان شيكسبير ذا خيال مبدع حين
تناول قبضة من أشئات التجارب التي يشهدها مضطربة في الدنيا
من حوله ، ويشهدها معه الناس جميعاً ، فربط بين أجزائها ،
فإذا هي ملوكٌ تحكّم وقوادّ تغزو وخدمٌ تطيع ؛ ثم أهبط من سماء
العلم والأدب إلى عالم الأعمال من حولك ، فهذا تاجر عرف كيف
يكسب المال ألوفاً ، وذلك زارع عرف كيف يستدر الأرض
ذهباً نضراً ؛ فبم امتاز الزارع والتاجر حين تقلبا في أعطاف

النعم ، والناس من حولهم ينظرون نظرة ملؤها الحسرات لهذه
الدنيا تغلت من أيديهم جرداء جدياء ؟ قد امتازا بقوة الخيال الذي
يربط بين شتى الحقائق التي يدركها كل إنسان !

نعم إن الدنيا لا تنسح صدرها إلا لذوى الخيال الخلاق ،
ولكن حذار يا صاحبي أن تظن بهذه القوة أنها ضرب من إرادة
القدر أو سر من أسرار الروح يعز عنك بلوغه ؛ إنك إن ظننت
هذا فقد ظلمت نفسك ، وكتبت لها الحرمان ؛ إن عناصر الخيال
تحت يدك وطوع أمرك ، فمرّها إن شئت تكن لك خلقاً جديداً !
ولست أعنى بتلك العناصر إلا تجاربك التي أخذت في تحصيلها
مذكنت إنساناً واعياً ؛ فحرك هذه التجارب في نفسك ، وحاول
أن تربط بين أجزائها ربطاً جديداً ، فتصبها في قالب جديد ؛
اتخذ من تجاربك ما يتخذ النحات من قطعة الرخام ، والكاتب
من الألفاظ ، والطاهي من مواد الطعام ، والبناء من عناصر
البناء . . . إنك إن فعلت فأنت ذا خيال مبدع مبتكر .

كأنى بقارئي لا يزال يائساً من نفسه ، ظاناً بها العمق فلا تلد ،
والجمود فلا تخلق ! فإن كنت كذلك فاحمل قلبك الآن قبل أن
تمضى في القراءة وابطسط أمامك قطعة من ورق ، أو — إن
أردت — فاستخدم هامش هذه الصحيفة ، وارسم حيواناً لم تقع

قارئ الأفكار

كنت أساكن صديقاً بضاحية الزيتون في دار صغيرة جميلة ذات طابقين ، وكان هذا الصديق يشاركني ألوان الثقافة والتفكير ومنازع الحياة والسلوك ؛ اللهم إلا جانباً واحداً بارزاً اختلفت معه فيه ، فقد كان يؤمن بما للنفس من قُوَى : يؤمن بإحضار أرواح الموتى ، و بانتقال الخواج النفسية بين الأحياء دون تفاهم واتصال ؛ كان يؤمن بهذا وبغيره من قوى النفس المزعومة الموهومة ؛ وكنت لأؤمن بشيء من هذا قلّ أو كثر . ولم يكفِ هذا الصديق أن يأخذ بالرأى في صحت وهدوء ، بل تحمس له حماساً يمازجها شيء من الصخب ، وساهم في جمعية نفسية تألفت في القاهرة من بعض المشتغلين بهذه الأبحاث ، ولم تكن لجماعتهم هذه دار يلتقون فيها ، فانفق الأعضاء على أن تكون الجلسات في ديارهم .

وفي يوم برّذه زمهرير ، دبّر صديقي اجتماعاً في دارنا ، وكان محتوماً على أن أساهم في الحفاوة بالزائرين ، أو أغادر الدار . وقد آثرتُ أن أخوضَ في برّذ الشتاء ، على أن أستمع مرغماً إلى ما يديره أولئك الأعضاء من هراء ؛ ولكن شاء حظي المنكود

أن يفاجئاً صديقي بما أزمه بالسفر في تلك الليلة إلزاماً لا سبيل إلى الفرار منه ، فماذا يصنع والاجتماع بعد ساعتين أو أقصر ؟ أمامه مخرَجٌ واحد ، وذلك أن أظَلَّ بالدار لأستقبل الأضياف .

وحَدَّثْ ما شئتُ عما أصاب نفسي من حَرَاجٍ وضيق ، ولكنني ججحت هذا النغم في كبدى ، ورسمتُ ابتساماً على بحيائى لألقى بها الزائرين .. وحان الحين ، وأقبل المقبلون ، فأخذتُ أصافح وأسامر في بشرٍ وترحاب ، كأنى كنت لهذا اللقاء في لوعة المشتاق ، وما هو إلا أن فرغنا من العشاء ، فانتقل الزائرون إلى غرفة المكتبة ، وكنا قد أعددناها للجلوس ؛ وهنا أقبل صديقي حسن ، وهو يفهم موقعي من هذه الأبحاث النفسية ، ويشاركني وجهة النظر ، وجلس بعد أن صافح الحاضرين ... ولم تمض دقيقتان حتى سادنا الصمت ، ووقف رئيس الجماعة ، وسعل سعلة خفيفة ، تمهداً لكلمة يلقيها في الحضور ، ثم قال : « سادتي ! إنا لنأسف أسفاً شديداً لغياب زميلنا يوسف هذا المساء ، ولكن أهي العناية الإلهية دبرت هذا لأكشف لكم في صديقه وصديقنا محمود عن عضو جديد وعَضِدٍ قوَى مستنير؟! لقد رأيتم جميعاً كيف استقبلنا بحفاوة الأكرمين ، ولكنني رأيت فيه جانباً آخر ، فقد أخذ يحدثني ونحن جلوس إلى مائدة

الطعام حديث المتعمق ، الخبير بالنفس البشرية وسرها المكنون ،
فمجتبت لأمره أشد العجب ، فقد ذكره لى صديقه وصديقنا
يوسف فى غضون حديث له معى منذ أيام ، فأنبأنى عنه أنه واسع
الثقافة كثير المطالعة ، وأنه كان يصلح لجماعتنا هذه عضواً مفيداً ،
لولا أنه ينفر نفوراً شديداً من أبحاثنا الروحية ، ولا يصفها بأكثر
مما يوصف به خلط المجازين ... »

فقاطعتة قائلاً : ليس هذا حقاً ياسيدى ، لقد ساء فهمه إياى
أو أساء الافهام ، لأنى مشغوف بالروح وما يتصل بها من بحوث.
إن أصدقائى جميعاً يعلمون عنى أنى أعيش فى كتب الأقدمين
أكثر مما أعيش بين الأحياء المعاصرين ؛ وأشبه هذه البحوث
الروحية كثيرة فى تلك الكتب ، بل جاءت عصور بأسرها
لا تعرف من العلم إلا أشباه هذه البحوث ؛ وليس من المعقول أن
أخرج من هذا المحصول الضخم صفر اليدين . ولم أف من الأمر
عند المعرفة النظرية ، بل طبقتها مرتين حين كنت فى مراكز
الريف فأفلحت إفلاحاً عجيباً ؛ ولو شئتم عرضت أمامكم بعض
هذه التجارب التى أجزيتها فى قدرة النفس البشرية على نقل
الخواطر من ذهن إلى ذهن بغير ما يعهد الناس من وسائل
التعبير . . .

فخدق صديقى حسن نظراته فى وجهى ، ولحت فيه ميلاً إلى
الضحك ، عرفته فيه منذ ائتلف قلبانا فى هذه الصداقة القوية ؛
ولكنه حين رآنى أسترسل جاداً فى الحديث ، أخذ يعلوه
العجب ، وتبدو فى عينه الدهشة مما أقول ، كأنه أراد أن يهمس :
أأنت مازح أم هذا جانب منك خدعتنى فيه ؟ !

ولكنى لم آبه لما يختلج فى نفس صديقى حسن آتئذ ،
ودرت ببصرى فى أعضاء الجماعة النفسية قائلاً : هل تؤمنون
بقدرة الروح على نقل الخواطر من شخص إلى شخص على بعد
ما بينهما من شقة ؟ فأجاب الرئيس : « إنك يا سيدى كمن يسأل
بائع الفاكهة هل يبيع فاكهة ! إن نقل الأفكار والخواطر فى
مقدمة البحوث التى تعنى بها جماعتنا ، بل إنه علة ائتلافها وسبب
وجودها ... نحن معيرونك آذاناً مرهفة مصغية ، فحدثنا فى هذا
الأمر ما شئت من حديث ، وأجر ما شئت من تجارب ، فما
أحسب إلا أن الجمعية قد كسبتك عضواً قديراً خطيراً .

قلت : إذا فاسمعوا . سأخرج من الغرفة الآن ، فاختراروا
من هذه الأشياء التى حولكم شيئاً ، ثم شبكوا أيديكم بحيث
يمسك كلٌ بجاره ، وركزوا أذهانكم جميعاً فى الشيء المختار ، على
أن يشير أولكم بيده المطلقة إلى ذلك الشيء . أما أنا فسأصعد

إلى الغرفة العليا ، ثم أغلق من دوني الباب ، وأنقر بعصاي على الأرض نقرات متصلة ، فإذا ما أخذت في هذا النقر بالعصا ، اجلسوا وشبكوا أيديكم على النحو الذي أسلفت ، وركزوا تفكيركم فيما تختارون ؛ وسأخبط أرض الغرفة بعصاي خبطتين غليظتين لنعودوا إلى حيث كنتم ، قبل أن أهبط إليكم ؛ فلو استطعتم أن تركزوا عقولكم في الشيء المختار ، فلن أجد عسراً في قراءة ما تفكرون فيه على صفحات أذهانكم ، كأني أقرأ في كتاب منشور .

فقال الرئيس : إن حدث هذا كان مثلاً ناصماً ، وبرهاناً قاطعاً على قوة النفس البشرية في قراءة الأفكار . ابدأ بتجربتك يا محمود ، فنحن منفذون لك ما تريد . وأما صديقي حسن فلم يزد إلا دهشة وعبجاً ، أهذا هو صديقي الذي خالطته أعواماً ، فلم أشهد منه إلا ضحكاً وسخرية من سخف العقول التي تأخذ بهذه الآراء ؟ !

أخذت عصاي واتجهت صوب الباب ، وقد أوصيتهم قبل أن أغيب عن أنظارهم ، أن يركزوا أفكارهم في الشيء المختار تركيزاً شديداً ، وخرجت إلى البهو وصعدت السلم ، وفتحت باب الغرفة العليا في صوت مسموع ، ثم أقفلته في عنف ليعلموا أنني

قد بلغت مكاني فيأخذوا فيما أوصيتهم به ... هنا وقف الرئيس وأقبل باب المكتبة ليزدادوا استحكاماً ، وشبكوا أيديهم ، وكنت قد بدأت أنقر بعصاي نقرًا خفيفاً على أرض الغرفة العليا . وقد مد الرئيس يده المطلقة — وكان هو الذي وقف في نهاية السلسلة — ووضع إصبعه على مصباح المكتب ، فهز الباقون رءوسهم بالموافقة ، وأخذوا جميعاً يركزون عقولهم في هذا المصباح ، وقد ساد بينهم صمت عميق تكاد تسمع فيه تردد الأنفاس ؛ فكان صوت عصاي وهي تنقر على أرض الغرفة العليا يدوي في أرجاء المكان ، ثم وقفت نقرات العصا لحظة قصيرة ، ثم خبطت بها خبطتين غليظتين إيذاناً بالنهاية . ففك الأعضاء أيديهم وعادوا إلى أماكنهم الأولى ، وفتح الرئيس باب المكتبة ، فهبطت السلم وأقبلت على الجالسين كأني أعنت الذهن إعنائاً مرهقاً ، وقلت : لا تنظروا إلى الشيء المختار ، بل فكروا فيه لتنتقل الفكرة من عقولكم إلى عقلي ... فلبثوا جالسين في صمت رزين يزيغون الأبصار هنا وهناك ، وطفقت أعبّر الغرفة جيئة وذهاباً ، ثم خطوت خطواً فسيحاً سريعاً مفاجئاً نحو المكتب ، ورفعت المصباح وأنا أتهلل بالبشر ، وقلت : هذا ما اخترتموه ، لقد قرأت الفكرة في عقولكم جلية واضحة ، كأني أقرأ في كتاب منشور !!

فضح المكان بعد ذلك الصمت الرهيب ، وقال الرئيس في صوت المتحمس : ألا فيلنظر إلى هذه التجربة الرائعة كل كافر بالنفس البشرية وقواها ! فلنسجل هذا في دفاترنا برهاناً قاطعاً على إمكان قراءة الأفكار ، نشره في الناس يوم نشر خلاصة ما نقوم به من الأبحاث .

فقلت وقد أحسست بنفسى التيه والإعجاب : لو شئتم أجريت لكم تجربة أخرى ، ولكم أن تزيدوا الأمر دقة وصعوبة ... وأخذت العصا وصعدت السلم وبدأت أنقر على أرض الغرفة العليا نقرأ خفياً ... قال الرئيس لزملائه : « سنختار هذه المرة شيئاً دقيقاً بحيث لو عرفه لم يعد محل لريب مراتب ، سأختار كتاباً من أحد هذه الرفوف ، وسأفتحه كما اتفق ، وستكون الصفحة المفتوحة هي ما تركز فيه الفكر » ؛ فوافق الزملاء وشبكوا أيديهم ، وخطا الرئيس إلى أحد الرفوف وانتزع كتاباً وضعه على المكتب ، ثم دسَّ سبابته بين صفحاته وفتح ، فإذا هي صفحة ١٧٦ ، فأشار إليها بيسراه ، وشبك يميناه في يد جاره ووقف الجميع في صمت يفكرون في الشيء المختار ، ونقرات العصا متصلة على أرض الغرفة العليا ، ثم وقف النقر لحظة قصيرة ، ثم ضربت الأرض بالعصا ضربتين غليظتين إيذاناً بالنهاية .

فكفت الأيدي وأعيد الكتاب حيث كان ، واتخذ كل من في الغرفة مجلسه ، وهببت السلم ودخلت حجرة المكتب ، فألقيت الجميع في سكون رصين رزين لا تسمع فيه نامة ولا حركة . وقد أخذت أذرع الغرفة بخطاى كأننى أفكر ؛ وما هى إلا أن وقفت بفتة وقلت في لهجة حادة : « إن بينكم رجلاً لا يركز تفكيره في الشيء المختار تركيزاً شديداً » . ونظرت إلى صديق حسن ، فرشقه أعضاء الجماعة النفسية بنظرات ملؤها اللوم والتأنيب ، وبدا على وجه حسن من العلام ما يدل على أنه كان بالفعل شارد الفكر ، ولكنه أحس أنه في قوم جادين فيما هم فيه ، لا يلهون ولا يعبثون ، فخصر ذهنه في الصفحة المختارة حصراً قوياً . وساد الصمت ، ووقفت أجيل البصر في أرجاء الغرفة ، أصعده وأصوبه ، ثم خطوط خطأً سريعاً مبالغاً إلى رف بين رفوف الكتب ، وأنزلت منه كتاباً وضعته على المكتب وفتحته في صفحة ١٧٣ ، ونظرت إلى الرئيس قائلاً : ألم يقع اختياركم على هذه الصفحة ؟ .. فاندفع الجالسون إلى المكتب يشربون بأعناقهم إلى الكتاب ، وقد فغروا أفواههم عجباً وإعجاباً . فسألتهم : هل أصبت هذه المرة أيضاً ؟

قال الرئيس : لقد قاربت الصواب قرباً شديداً . لقد

اخترنا صفحة ١٧٦ ، فلم تخطي^{*} إلا قليلا حين حسبتها صفحة ١٧٣ .
إن في المكتبة مئات من الكتب فيها ألوف الألوف من الصفحات ،
فياله من نصر عظيم حين تخطي^{*} في صفحات ثلاث ! أستغفر الله
ماذا أقول ؟ أقول إنك أخطأت مع أن هذا الخطأ اليسير هو
بعينه دليل الصواب ؟ ألم يشرّد صاحبنا — وأشار إلى حسن —
بفكره لحظة هي كفيّلة أن تسبب هذا الانحراف القليل !

قلت : نعم ، سيدى الرئيس ، لم أكد أدخل الغرفة ، حتى
أحسست إحساساً عجيباً ، أحسست كأن جاذباً يجذب فكري
عن غاية يقصد إليها ، أحسست كأن عاملاً يحول بيني وبين
ما أريد ، فأدركت من فوري أن أحد الحضور قد شرّد بفكره
عن الشيء المختار .

قال الرئيس : هذه تجربة نادرة ! هذا مثال عجيب لقراءة
الأفكار ! هذه حالة تنهض دليلاً قوياً على أن تركيز الفكر في
شيء سبب في انتقال الفكرة إلى شخص آخر ، وشروده حائل
يحول دون هذا الانتقال . إن زلة صديقنا هذا قد جاءت مؤكدة
للتجربة مؤيدة لها ؛ فلو لا هذه الغفوة منه ما عرفنا كيف تكون
الحال إذا ما حيل دون تركيز الفكر . ماذا تقول ؟ أتقول إنك
أحسست كأن شيئاً يقف في طريقك ويصرفك عن غايتك ؟

قلت : نعم ، سيدى الرئيس ، شعرت بذلك شعوراً قوياً ،
فقد رأيت نفسى بادى^{*} الأمر منجذبة نحو الكتاب حين دخلت
الغرفة ، ولكنى أحسست فجأة أن الفكرة الواضحة في نفسى قد
غشاها غموض واضطراب ؛ ولما عاد صديقي حسن إلى تركيز
فكره رأيت فكرة الكتاب تزداد في ذهني وضوحاً شيئاً فشيئاً ،
وشعرت كأنما يدفعني إليه دافع ليس إلى مقاومته من سبيل ...

فدار الحديث بين الأعضاء ساعة حول هذه القدرة العجيبة
للنفس الإنسانية على استطلاع ما يختلج في نفوس الآخرين من
خلجات وأفكار ؛ ولما آن موعد انصرافهم صاحفوني مهنتين
معجبين ، وخرجوا إلا حسناً ، فقد بقى ليقضى معى شطراً أطول
من الليل ؛ فما كدنا نعود إلى مجلسينا حتى نظر إلى حسن في
دهشة ، وقال : ما ظننتك يا محمود مشغولاً بالبحوث النفسية قبل
الليلة ، فلطالما زعمت لى عن نفسك أنك منطقي جاف صارم في
منطقك ، ولطالما أنكرت لى ما يذيع في مجالس الناس من أبناء
عن قوى النفس وأسرارها ، لأنها كانت لا تتفق في رأيك مع
المنطق العقلي المستقيم .

قلت : ماذا ؟ أتراك قد انخدعت يا حسن كهؤلاء
المجانين ؟

قال : ما أرى في الأمر خداعاً . لقد تحوّلنا للأمر تحوطاً
شديداً ، ومع ذلك فقد أبدت قدرة عجيبة على استطلاع خلجات
العقول !

قلت : إذاً لقد وُفِّت في خداعكم أكثر مما توقعت لنفسى ؛
إن الأمر كله خداع في خداع ، كنت أصعد السلم وأبدأ في النقر
الخفيف بعصاى ، ثم أمر الخادم أن يواصل هذا النقر حتى أخف
مسرعاً من السلم الخلقى لأنظر إليكم من ثغرة ضئيلة في النافذة
المطلّة على الحديقة ، حتى أشهد ما تفعلون ، فأعود سريعاً إلى
الغرفة العليا وأخذعصاى من الخادم فأخبط بها خبطتين غليظتين
ثم أهبط إليكم عالماً بكل أمركم .

قال : لئن كان هذا الخداع الساذج مما يجوز على هؤلاء
المتقين ، أفيكون عجباً بعد هذا أن تنخدع عامة الناس ؟

النساء قوامات

إذا عشتَ في أمة هازلة حملك الناس محل الهزل إن كنت
جاداً ، وأخذوك مأخذ الجد إن كنت مازحاً ، حتى لا تدرى إن
أردت معهم الجد ولم تسعفك روح الفكاهة ، كيف تتوجه إليهم
بالخطاب ؛ ولست أرى لك حيلة سوى أن تقسم لهم في مستهل
الحديث بالذى بسط لهم الأرض ورفع السماء ، أنك فيما تحدثهم
به إنما قصدت إلى الجد ولم تقصد إلى المزاح .

والذى أتقدم به الآن بين يديك أيها القارئ الكريم
أتقدم به في استحياء وخجل لما أحسه فيه من نبو وشذوذ وخروج
على مألوف الرأي والعادة ، ملتصقاً منك الغفران إن كنت على
ضلال ، وراجياً منك التأييد والتعضيد والفعل والتنفيذ إذا رأيتنى
قد وقفت إلى صواب ، الذى أتقدم به الآن بين يديك جاداً كل
الجد مؤمناً كل الإيمان ، رأى في الإصلاح لست أرى للإصلاح
سبيلاً سواه ، بعد تفكير أدركته في رأسى أعواماً طويلاً ؛ وقد
هدانى إليه حادث عابر — وكم في تاريخ الإنسان من كشف
عظيم هدى إليه حادث عابر — والرأى في بساطة واختصار هو
أن نلقى بزمام أمرنا في أيدي نساتنا حيناً من الدهر ، فنجعل

النساء قوامات على الرجال قرنا كاملا ، لملهن في نصفه الأول
مستطيعات أن يصلحن ما أفسدت أيدي الرجال مدى خمسين
قرنا ، وأن يضمن في نصفه الثاني أساساً جديداً حياة جديدة ؛
وللرجال بعد ذلك أن يستردوا قوامتهم على النساء ، إن وجدوا
أن ذلك عندئذ في حدود المستطاع . أريد أن تكون الكلمة
العليا في الأسرة للمرأة لا للرجل ، بحيث يفاخر المرء أقرانه بأنه قد
تمهده أمه لا أبوه ؛ أريد أن أرى في مناصب الدولة جميعا —
رفيعها ووضيعها على السواء — نساء لا رجالا ، فيكون منهن
الوزيرات والمديرات والمأمورات والضباط والشرطيات والقاضيات
ونائبات البرلمان ، وأن يحرم الرجال حق الانتخاب على النحو
الذي حرّمته المرأة اليوم ؛ أريد أن يكون الرأي للمرأة في كل
شيء قرنا كاملا من الزمان .

أوحى إلى بهذه الفكرة حديث قصير مع فتى وفتاة ، كلاهما
تخرج في الجامعة ؛ فوجدت في الفتى خفة ورعونة وتفاهة رأى ،
بقدر ما وجدت في الفتاة تماسكا واتزاناً وسداداً ؛ فلم يسعني إذ
كنت أجالسهما وأستمع إلى الحوار بينهما سوى أن أسائل نفسي
متعجبا : أيكون هذا الفتى قواماً على هذه الفتاة لو تزوج منها ؟!
الأيكون لهذه الفتاة الرزينة الرصينة المترنة العاقلة رأى في سياسة

بلدها ، وأن يطلب رأى من مثل هذا الفتى — أستغفر الله ،
بل لا يكون لهذه الفتاة رأى في سياسة بلدها ويطلب رأى من
« عبد الله الطبال » ، وهو رجل ذو بلاهة كان يبيع في حارتنا
الطعمية منذ أكثر من ثلاثين عاما ، وكان لنا موضع العبث
والهزل والفكاهة ونحن أطفال .

عدت إلى دارى بعد هذا الحادث العابر ، أسائل نفسي في
الطريق متعجبا مرة أخرى : أيكون هذا التفاوت الفسيح الذي
شهدته بين الفتاة والفتى شذوذا يحدث مرة ويتخلف مائة مرة ،
أم يكون هو القاعدة السارية الجارية التي تقع مائة مرة وتتخلف
مرة ؟ وما كدت أبلغ دارى وأستقر إلى مكنتي حتى أخذت
الأمر مأخذ الجد والعلم الصحيح ؛ فمن العبث أن نعيش في عصر
يفوح هواؤه بالعلم والعلماء ، وتدار أدواته في الأنايب والمعامل ،
ثم نقف حيال ذلك كله ، موقف المتحدى ، فنطرح وراء ظهورنا
وسائل العلم وأساليب العلماء ؛ وأبسط هذه الوسائل والأساليب
أن نبني أحكامنا على حقائق محسوسة ملموسة ، والأنايب على
خيال وهم أورأى عابر ؛ ينبغي لك إن أردت اليقين أن تبسط
الحقائق أمام نظرك أولا ، لتهدى بهديها ، وتتزع منها الحكم
الصحيح ، والحقائق التي لا بد لك أن تبسطها في هذا البحث

الذى نحن الآن بصدده ليست حشرات ولا غازات ولا صخوراً
ولا معادن ؛ الحقائق المطلوبة ها هنا أساساً للبحث عدد من النساء
وعدد من الرجال ، تجمعهم بالذاكرة في رأسك ولا تدعوهم للاحتشاد
في ردهة دارك ، واجعل العدد أكبر عدد ممكن ، ثم قارن بينهما
اثنين اثنين ، بحيث تقرن الرجل إلى من يساويه من النساء سنّاً
وتعليماً وظروفاً ، ثم انظر أى الجنسين كان أسلم نظراً وأسد رأياً في
مواقف بذاتها مرت بك وكونت جزءاً من تجاربك .

هذا ما صنعته أنا ، استعدت بالذاكرة عشرة المواقف التي
تعارض فيها رجل وامرأة ممن تقاربت ظروفهم ، فوجدت في كل
زوج اخترته للبحث ، أنه حيثما اختلف الاثنان في وجهة النظر ،
كان الرجحان حليف المرأة في تسع مرات من كل عشر ؛ وإني
أيها القارئ لأناشدك الذمة والضمير والإخلاص ، إني لأستحلفك
الله والوطن الذى نريد معاً أن نصلحه ، أن تخلو لنفسك ساعة
واحدة فتعرض لمن تعرف من ذكور وإناث ، هادئ النفس
خالص النية مبرأ من الهوى ؛ اعرض لمن تعرف من أزواج
وزوجات ، وبنين وبنات ، وإخوة وأخوات ، وطلاب وطالبات ،
وموظفين وموظفات ؛ اعرض هؤلاء أزواجاً أزواجاً ، وكن أميناً
في عرضك ، فلا تقرن الجاهلة إلى المتعلم ، ولا الصغيرة إلى الكبير ،

لا توازن بين قروية ومتحضر ، بل اختر أمثلك ممن تشابهت
حالمهم وتقارب محيطهم ، ثم نبثني بعد ذلك أى الجنسين وجدته
أسلم تفكيراً وأنفذ بصيرة ؟ أما أنا فلم يعد عندي في الأمر موضع
لريب . لقد آمنت إيماناً أرسخ من شم الجبال ، بأن المرأة في مصر
أحكم رأياً من الرجل في مصر ، وأنه ينبغي لذلك أن يكون لها
الأمر والسلطان ولو إلى حين .

لملك لحظت أني أحدد القول بالرجل في مصر والمرأة في
مصر ولا أطلق الحكم إطلاقاً ؛ وأراني ها هنا مضطراً إلى تنبيهك
إلى خطأ يقع فيه كثيرون وأعيذك أن تقع فيه إذا ما أخذت في
البحث ؛ والخطأ أن تبدأ بقول عام تلقيه على عواهنه وتتشبث به ؛
هذا لا يجمل بك أن تصنعه مهما يكن قائل هذا الرأى ومهما تكن
منزلته من نفسك ونفوس الناس ؛ فاجعل بداية بحثك أمثلة فردية
جزئية واقعة ، واترك نفسك على الحياد ، وانظر لإلام تزدى بك
هذه الأمثلة المختارة ؛ أنا أشير عليك بهذا بعد خبرة طويلة ؛ فكم
من مرة ثار فيها هذا الجدل : أيهما أقدر على تصريف الأمور ،
الرجل أم المرأة ؟ وكم من مرة كلما ثار الجدل أخذتني الغيرة على
الرجولة والرجال ، وخشيت أن يكتسح سلطانهم وتضيع حقوقهم ،
فكنت أحتج للرجل على المرأة بكثرة النابغين وقلة النابغات

وما إلى ذلك من جدل نظري عقيم ؛ لكنني الآن أؤثر طريقة أخرى في التفكير منتجة مفيدة ، وهي أن أخصص ولا أعم إلا بعد تخصيص ، أؤثر الآن أن أختبر الموقف الفرد والأرف بمجناحين عريضين في أطباق الهواء مسرعاً لانتهي إلى تعميم في الحكم بين طرفة عين وانتباهتها ؛ فليس ذا غناء أن أوازن بين المرأة والرجل ، كائنة من كانت المرأة ، وكائناً من كان الرجل ؛ بل لا بد لي أن أحصر موضوع البحث وأضيق حدوده ، فأبدأ بهذه المرأة وهذا الرجل ، وبهذه المرأة الأخرى وهذا الرجل الآخر ، وبهذه المرأة الثالثة وهذا الرجل الثالث ؛ ثم أنتقل بعد ذلك إلى المرأة في مصر والرجل في مصر ، إن وجدت أن الأفراد الذين أخضعتهم للبحث يبررون مثل هذا التعميم ؛ وليس من حقي أن أقول عن المرأة في أنحاء العالم ما أقوله عن المرأة في مصر ، ولا عن الرجل في أنحاء العالم ما أقوله عن الرجل في مصر ، إذ قد يكون في مصر من الظروف الخاصة التي لا تشاركها فيها سائر الأقطار ، والتي قد يكون من شأنها أن تكون المرأة في مصر أسلم نظراً من الرجل وأسد رأياً ؛ والواقع أن هذا هو ما انتهيت إليه وما آمنت به وما أزعجه لك وما أرجو لك أن تأخذ به بعد بحث وتحقيق .

وإذا اتفقنا على صواب الرأي بقي علينا أن نعلله ، وقد فتح على الله بتعليين أذكرهما لك وأرجو منك المزيد .

التعليل الأول هو أن الذكر في مصر مدلل لذكورته والأثني مهيضة الجناح لأنوثتها ؛ قد تكون هذه ظاهرة طبيعية في العالم كله وفي عصور التاريخ كلها ، لكنني لا أكاد أراها في بلد من بلاد الأرض قد بلغت ما بلغته في مصر ، وتكاد الآية الكريمة : « وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت » تتجه بالسؤال إلى المصريين اليوم كما أتجهت به إلى جاهلية القرون الغابرة ، فلست أرى كبير فرق بين وأدهن بالجسم وأأدهن بالروح ...

هذا الولد المدلل يشعر منذ اللحظة الأولى لحياته الواعية أن فعله مقبول وقوله مستطاب ، فإذا عليه لو فعل الفضايح وقال الهراء ؟ إنه « ولد » وإنه مدلل وإن مكاتته في القلوب عالية رفيعة ؛ إن تبهم له الوالد لفعله فهو يعلم في يقين أن الوالد هازل في تبهمه ، وإن اتهرته الوالدة لقوله ، فهو كذلك يعلم أنها مزاححة في اتهارها ؛ وتأتي بعدئذ مرحلة قريبة جداً من هذا ، الانزلاق إليها سهل ممهد يسير ، وهي أن يستبد هذا الولد ويظفي ، لن يعود طلبه رجاء ، بل أمراً يجب أن يطاع ، ولن تعود الحدود الضابطة لفعله وقوله هي ماله من حق وما لغيره من حقوق ، بل يصبح الأمر كله رغبة يريد

على مثله عينك ولم تسمع بوصفه أذناك ؛ امض فيما أشيرُ عليك به
الآن ، وأنا زعيمٌ لك بقدرة خيالك على تصوير هذا الخلق الجديد ،
ولا يؤسنتك أن يخرج رسمك قبيحاً خالياً من الفن ، لأنه خلقٌ
جديدٌ على كل حال ، ينهض أمام عينيك برهاناً على أن لديك
ما زعمته لك من قوة الخيال ؛ ولعلك إن رعيتهما بالغٌ بها أمداً
بعيداً ... قد تنظر إلى رسمك فتقول : ولكني لم أخلق شيئاً ،
فهذا الجناح رأيته في الطائر ، وذلك السنام شهدته على جبل ،
وذلك الخرطوم وجدته في الفيل ، وهذا الذنبُ عرفته في قطي ،
ولم يكن لي من الخلق سوى أن جمعت الجناح إلى السنام إلى
الخرطوم إلى الذنب ؛ قد تقول هذا ، ولكن ما ظنك يا صاحبي
إن أنباتك أن شيكسبير أو فيكتور هيجو أو المتنبي لم يكن له في
إنتاجه سوى أن ألف بين جناح وسنام ؟ تلك هي قوة الخيال ؛
فلا عيب في أن تجمع بين أجزاء عرفتها ، وإنما العيب أن تترك
الأجزاء منشورة فلا تصل بينها برباط .

فاحفظ إذاً هذا الدرس الأول في قوة الخيال ، وهو أن في
مقدورك أن تصوغ تجاربك التي حصلتها أثناء الحياة بحيث تبدعُ
منها خيالاً هو في مجموعه جديد لم يسبقك إليه إنسان ؛ وعلى
قدر ما حصلت من التجارب ، وعلى قدر جهدك في استغلال هذا

المحصول تكون منزلتك بين أصحاب الخيال ؛ فلئن شاقك أن
تكون بين قومك شيكسبير زمانهم ، فاجمع ما ظفر به من تجربة ،
ثم حرك أجزائه في نفسك حركة عنيفة حتى تبعثر وتنتثر ، ثم
ألف بين جوهرة من هنا وجوهرة من هنالك ، يكن لك من
خيالك عقده فريد مبتكر ! نعم إن بعض الأذهان مغلق لا خيال له ،
ولكنك لست واحداً من هؤلاء ، فحسبك دليلاً على قدرتك
العقلية أنك احتملت قراءة هذا القدر من هذا المقال ؛ وما دمت
ذا خيال مبدع فهات دلوك أدلٍ به في الدلاء ، لعله يخرج إليك
بكثير أو قليل من الماء ، فها هو ذا العالم مليء بمشكلاته التي
تطلب كل ضرب من ضروب الخيال لحلها ، فانظر كم في مصر من
مشكلات الاقتصاد والاجتماع ! إن العناصر المطلوبة لمعالجها
موجودة كلها ، كن من ذلك على يقين ؛ عناصر الملاج موزعة
بين الناس جميعاً ، ولكن ما أقل من يستخدم معرفته من الناس !
ما أقل من يُعملُ خياله ، فيجمع بين منشور الحقائق ، ليصل إلى
حكم جديد مفيد ! فهل يستحيل أن تكون أيها القارىء واحداً
من هؤلاء القليل ؟ كلا ، فانسج لنا مما عرفت ديباجة فكرية
جديدة لعلها تقوّم معوجاً أو تصلح سقيماً ؛ ولا تحش أن يقول
قائل عنها إنها ديباجة يمكن للنقد أن يرد لحمتها وسداها إلى أربابها .

ولكن حذار أن تكون في خيالك حالماً ، فحدد خيالك بالحقائق الواقعة ، وإلا طار مجهودك أدراج الرياح ؛ فاحلم في خيالك ما شئت ، على أن تكون هذه الأحلام ممكنة الوقوع ، فليس من الحكمة أن تطير بخيالك في الهواء ، وعلى هذه الأرض ما يحتاج ألف خيال .

كم قرأت من القصص ؟ وكم شهدت وسمعت من ألوان الوسائل التي تدرجنا هنا وشهرة هناك ؟ ألم يتردد في نفسك شيء من الندم حين قرأت القصة الجميلة أن لم تكن كاتبها ؟ ألم تحسّ ظلاً خيفاً من الحسرة حين رأيت فلاناً يكسب المال بفكرة ابتكرها ، وفلاناً يظفر بالصيت البعيد لرأى خلقه وابتدعه ؟ فقد أردتُ اليوم أن أدلك على أن تلك الفكرة وهذا الرأي وما إليهما ، ضروب من الخيال ، نسجه أصحابه من عناصر تحت الأبصار والأسماع ؛ وفي وسعك وفي وسعى أن ننسج منها على منوال جديد مبتكر ، لو أخذنا أنفسنا منذ الآن بالتدريب والمران ؛ وأؤكد لك يا صاحبي أنك واجد في أعمال الخيال تخلق جديد متعة قل أن صادفت لها ضربياً في ألوان المتاع ، مهما يكن هذا الوليد الذي تخلقه بخيالك : قصة ، أو قصيدة ، أو تمثالا ، أو زخرفاً ، أو فكرة جديدة في الصناعة إن كنت صانعاً ، وفي

التجارة إن كنت تاجراً ... إن كنت من رفقاء المحابر والأقلام ، فحاول الكتابة تكن كاتباً بعد فشل قليل أو كثير ، ما دمت قد مرنت على تصنيف أجزاء تجاربك — بمالك من قوة الخيال — في ثوب جديد ؛ وإن كنت من أرباب العمل فقلب النظر في زحمة الناس ، في القطار والحديقة والطريق ، وسائل نفسك مركزاً على تجاربك : ماذا يريد هؤلاء الناس فلا يجدونه ؟ فقد تستعين بخيالك على ربط حقيقتين أو طائفة من الحقائق ، فيهبط عليك الثراء من حيث لا تحسب .

خذها كلمة ناصح : تناول قوة الخيال عندك بالتهذيب والتدريب ، يتسع أمامك في هذا العالم الضيق آفاق بعد آفاق .

لماذا لا نخلق

١

لست أعرف للحياة معنى إلا أنها قدرة الكائن الحي على الخلق والإبداع ؛ هذه الشجرة كائن حي لأنها تخلق من التراب غصونها وأوراقها وزهورها وثمارها ؛ وهذا الطائر كائن حي لأنه يخلق مما يشبه العدم بيضا تخرج منه الأفراخ ؛ والإنسان حي بقدر ما هو مبدع خلاق ، والأمة تسرى فيها الحياة بمقدار ما هي قادرة على الخلق والإبداع .

قال صاحبي : هذا كلام مكرور معاد . ماذا يجدي أن تقول القول فلا تأتينا في القول بجديد ؟ .

قلت : معذرة يا صاحبي ، فلکم لقيت من الناس من يضطرك اضطرارا أن تقسم له أغلظ الأيمان أن الحشائش خضر وأن السماء زرقاء ! لكم لقيت من الناس في هذا البلد الأمين من يحزنه أن يقال عن الإنسان إنه خالق مبتكر قوى غلاب ، بقدر ما يفرحه أن يقال له عنه إنه ضعيف عاجز مسكين ! إن من الناس من أصابهم الله في أنفسهم بالعم والجود ، ونظروا إلى

الدنيا من حولهم بمنظير نفوسهم ، فلم يروا فيها إلا ضعفا وعجزا وعقما وجودا ؛ قل لهم : إن الإنسان مستطيع ذات يوم أن يغزو الكون بعلمه ، وأن يستخرج أسرار الطبيعة من بطونها ليستخرها تسخيرا ، يعبسوا لك ويقطبوا الجبين ؛ وقل لهم : إن هذا الإنسان مخلوق ضعيف متهافت هزيل ضئيل ، يصفقوا لك إعجابا وتعظيما ! إنهم يرحبون بما يحدُّ من قدرة الإنسان ، وتهلل بالبشر أسارىهم إن قيل إن سلطان القدر فوق كل سلطان ؛ إن سادت طبقة من الناس على طبقة فهذا حكم القدر ، وإن هبطت أثمان السلع في السوق فهذا حكم القدر ، أو ارتفعت الأثمان فهذا حكم القدر ، وإن نفشى البؤس والمرض والفقر والجوع فهذا أيضاً حكم القدر ؛ وسأنسى كثيراً جداً مما قرأت ، ولكن مهما أنسيت فلن أنسى أبد الدهر مقالا قرأته لأديب فاضل جليل فنزل على نفسي نزول الصواعق ، وكان قد زاد من حسرتي أنه مقال جميل ! قرأت مقالا ينهى فيه الأديب الجليل الفاضل ابنه أن يحزن لمنظر بأس جائع يجمع الفتات من ثنايا القمامة والروث والطين ، قائلا لابنه : يا بني لا يجمل بك أن تحزن فهذا حكم القدر ، وإن في حكم القدر لحكمة تخفى عن الأبصار ! ثم قرأت للأديب الفاضل نفسه مقالا يعرض فيه على قرائه بعض ما وصل إليه العلماء في الغرب ،

فأشاع في كلامه تهكما على العلماء ومجبودهم ، لأنهم في رأيه
يخطون رءوسهم في جدر صماء ! إننا لا نقصد العلماء لأننا نعرف
أين يخطون وكيف يضلُّحون ، لكننا نقدم لأنهم يخلقون
ونحن لا نحب الخالقين ! نقدم لأنهم قادرون ونحن
لا نحب القادرين ، نقدم لأنهم لم يستسلموا للعجز ونحن إنما
نحب العاجزين !

نحن لا نخلق جديداً ، ولا نريد أن نخلق جديداً ، بل نسيء
إلينا أن نسمع عن إنسان أو عن أمة أنها تحاول أن تخلق جديداً ؛
لكن الحياة معناها القدرة على خلق الجديد ، والإنسان حي بمقدار
ما هو مبدع خلاق ، والأمة تسرى فيها الحياة بمقدار ما هي
قادرة على الخلق والإبداع ؛ ألا يأخذك يا صاحبي الهم والنغم والحزن
أن تتلفت فلا ترى إلا جدبا ونضوبا وعمقا وجودا ؟ إننا لا نكاد
نخلق شيئاً واحداً جديداً في العلم أو الأدب أو الفلسفة أو الفن
نتقدم به بين يدي الله يوم الحساب ، فنقيم الدليل على أن الحياة
التي هيئت لنا أسبابها لم تذهب أبديداً .

لا نكاد نخلق شيئاً واحداً جديداً في العلم ، وأعيذك يا صاحبي
أن تتدخ فتمزج بين العلماء وطلبة العلم ؛ فالفرق بعيد بعد ما بين
الأرض والسماء ، بين عالم ينتج الرأي الجديد وبين رجل يحفظ

ويفهم ما أنتجه العالم من رأى جديد ؛ علماؤنا تلاميذ كبار ،
والفرق بينهم وبين التلاميذ الصغار هو أن هؤلاء الصغار لا يزالون
يحفظون ما درسوه ، وأما أولئك الكبار فقد أنستهم مشاغل
الزمن ما حفظوه ؛ الفرق بعيد بعد ما بين السماء والأرض بين
الرياضي وطالب الرياضة ، وقد يكون طالب الرياضة طفلاً قصير
السراويل ، وقد يكون رجلاً له حية وشارب ، الفرق بعيد بين
فيثاغورس حين أقام البرهان على نظريته في الهندسة وبين التلميذ
— صغيراً كان أو كبيراً — يحفظ هذا البرهان ؛ هذا التلميذ
وفيثاغورس قد يتساويان في العلم بهذه النظرية وبرهانها ، ومع
ذلك ففيثاغورس رياضي لأنه خلق البرهان خلقاً من العدم
أو ما يشبه العدم ، والتلميذ تلميذ لا أكثر ولا أقل لأنه لم يزد
على أن حفظ وفهم ؛ فإن زعم لك زاعم بعد اليوم أن بيننا
العلماء والرياضيين ، فاسأل : ماذا خلقوا من جديد في العلم
أو الرياضة ، ولا تسأل ماذا حفظوا ، وإن كان للحفظ عند الله
أجر وثواب !

ونحن لا نكاد نخلق شيئاً جديداً في الأدب ، وإني أعيذك
مرة أخرى أن يخذلك الترقيم الأسود على الصفحات البيض ،
أعيذك أن تتدخ بما يقوله أدباؤنا عن أنفسهم وما يتقارضونه فيما

بينهم من حمد وثناء ؛ واجعل مقياسك شيئاً واحداً إن أردت الهداية والسداد ، وهو الخلق والإبداع ؛ سل أدباءنا : كم « شخصية » خلقها الأدب المصرى كله من أول الزمان إلى يومنا هذا ، بحيث أضاف بخلقها إلى مخلوقات الله إنساناً جديداً يشيع ذكره بين الناس أضعاف ما يشيع ذكر سائر الناس ؛ ولست أريد أن أزيد من يأسك أيها القارئ الكريم ، وإلا لذكرت لك حقيقة مروعة سهولك وتشيع الحسرة في نفسك ، وهى أن من أدباء الغرب من خلق وحده ستين « شخصية » أو سبعين !! أديبنا — مثل العالم عندنا والرياضى — تلميذ كبير ، مقالته تختلف عن موضوع الإنشاء يكتبه التلميذ الصغير فى الكم لافى الكيف ، تختلف فى الدرجة لافى النوع ، فالأديب محصوله من الأفكار أعظم من محصول التلميذ الصغير ، و ثروته من الألفاظ أغزر ، فإذا قيل للتلميذ الصغير — مثلاً — أكتب موضوعاً فى «وجوب العناية بالأطفال » ، ثم قيل للأديب الكبير أكتب مقالا فى هذا الموضوع ، جاءنا الأول فى موضوعه الإنشائى بفكرة واحدة وجاءنا الثانى فى مقالته بعشرة أفكار أو عشرين ، وربما أخطأ التلميذ الصغير فى النحو واستعمال الكلمات عشر مرات ، وأخطأ الأديب الكبير مرة واحدة ؛ فالفرق — كما ترى — بين التلميذ والأديب

فرق عددى لافرق فى نوع المكتوب ؛ أما أن يكتب أديبنا شيئاً من نوع آخر فليس ذلك فى مقدوره ، لسبب بسيط ، وهو أنه عاجز عن الخلق ، وليس فى استطاعته أن يبدع وأن يبتكر ؛ ستقول : وماذا تريد من الأديب أن يصنع سوى أن يكتب أفكاراً كثيرة فى لغة جميلة لكى يجيىء ما كتبه مقالة أدبية ممتازة ؟ وليس لى جواب عن سؤالك إلا أن أشير عليك بقراءة المقالة الأدبية عند أبطالها « مونتينى » و « أدسن » و « لام » وغيرهم لتعلم فى يقين أن الأدب المصرى كله لا يكاد يحتوى على مقالة أدبية واحدة من الطراز الممتاز ؛ ولست أريد أن أزيد من يأسك ، وإلا لذكرت لك حقيقة مروعة سهولك وتشيع الحسرة فى نفسك ، وهى أن الأديب المصرى لا يكاد يعرف إلا المقالة وسيلة للتعبير ، على حين أن المقالة فى الآداب الغربية لا تكاد تكنى وحدها أن تنشئ أديباً .

لقد حدث مرة أنى كنت أمثل بلادنا فى مؤتمر ثقافى جمع عشرات من ممثلى الدول الأخرى ، وأريد منا أن يكتب كل قائمة تحتوى على عشرة كتب أدبية من إنتاج بلده مما يصح أن يترجم إلى سائر اللغات فىكون أدباً عالمياً ، لأنهم رأوا فى ذلك وسيلة لتوثيق العرى بين الأمم ، فانتبذت فى المساء ركناً أفكر

وأفكر ثم أفكر ، لعل مهتد إلى عشرة كتب أقدمها للعالم
نموذجاً لأدبنا ، مما يصح أن يكون أدباً عالمياً ، فلم أجد ، وإني
أتحدى قارئاً يزعم عنى الخطأ والضلال أن يدكرني بما قد نسيت
من روائعنا الأدبية التي يجوز لنا أن نتقدم بها إلى العالم فخورين !
ولست أريد أن أزيد من يأسك أيها القارئ الكريم ، وإلا
لذكرت لك حقيقة مروعة سهولك وتشيع الحسرة في نفسك ،
وهي أن الرجل من إنجلترا أو فرنسا — مثلاً — لو سئل هذا
السؤال لأغض عينيه ، ووضع يده على كاتب واحد من أدباء
بلده ، في جيل واحد من الزمان ، وانتقى للناس عشرة كتب لهذا
الكاتب الواحد في هذا الجيل الواحد !!

إننا لا نكاد نخلق من الأدب شيئاً جديداً ، هذا ما أزعجه
وما أعتقد أن قارئى سيجادل فيه أشد الجدل ، لأنه سيجد حوله
كتباً تطبع وخطباً تسمع ، وسيجد في الصحف أنهاراً بعد أنهار
من النثر والنظم ؛ ما هذا كله إن لم يكن أدباً ؟ والحق أنى
أقدر كل التقدير شيئاً كثيراً جداً من هذا كله وإن تمنيت
على الله شيئاً فهو أن يكثر لنا من أمثاله ليزيل عن أبصارنا
غشاوة وعن بصائرنا حجاباً ؛ لكننى مع هذا التقدير كله والإعجاب
كله لا زلت أزعج — وفي القلب حسرة — أننا لا نكاد نخلق

في الأدب شيئاً جديداً ؛ قد يكتب لك الأديب المصرى ، فإذا
الذى يكتبه رأى في علم الاجتماع يبسطه ، أو في علم النفس
يشرحه ، أو قطعة من التاريخ يرويها ، أو مذهب في السياسة
يريد له الذبوع والشيوخ ؛ قد يكتب لك الأديب المصرى عن
المتنبى ليقول لك إنه شاعر عظيم ، أو يترجم لك عن شكسبير
ليقول إنه شاعر أعظم ؛ وهذا كله نافع جداً ومفيداً جداً ، وتنمى
على الله أن يزيد لنا منه ، لكنه رغم نفعه وفائدته شيء والخلق
الأدى شيء آخر .

كلا ، ولم نخلق شيئاً واحداً جديداً في الفلسفة ، وإني
أعيذك مرة ثالثة أن تخدع بما يزعمه لك « تلاميذ » الفلسفة عن
أنفسهم ، فأقسم لك بالله غير حاث أننى ضحكت وقهقهت حتى
استلقيت في مقعدى حين قرأت ذات يوم لأستاذ جليل تعلم
الفلسفة ويعلمها ، يقول في مجرى كلامه : « نحن الفلاسفة ... » !
وقل مثل هذا في الفن وما شئت من نواحي الفكر .

أعود فأقول إن الإنسان حى بمقدار ما هو مبدع خلاق —
والأمة تسرى فيها الحياة بمقدار ما هى قادرة على الخلق والإبداع ؛
ثم أعود فأزعم أننا لا نكاد نخلق شيئاً واحداً جديداً في الأدب
أو العلم أو الفلسفة أو الفن .

لماذا لا نخلق ولا نتبكر؟ هذا هو السؤال .

والجواب عندي هو أننا لا نخلق ولا نتبكر لأن لنا أخلاق

العبيد ، والخلق لا يكون إلا بعد سيادة وعزة وطموح ؛

وسأشرح لك هذا الرأي في المقال التالي .

لماذا لا نخلق

٢

زعمت لك في المقال السابق أننا لا نكاد نخلق شيئاً واحداً جديداً في العلم أو الأدب أو الفلسفة أو الفن ، وأعدتها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم ، حين أعدتكم بالله من خديعة الشيطان التي قد توهمك بشبه بين العالم وطالب العلم ، بين الأديب وشارح الأفكار ، بين الفيلسوف وقارئ الفلسفة ، أو بين الفنان ومن يتحدث في الفن وينقده ؛ وزعمت لك أن الفرق بعيد بعد ما بين السماء والأرض بين الرجل يخلق ما يقوله خلقاً من العدم أو ما يشبه العدم ، وبينه يفهم ما خلقه سواء ويعيه ، بل يطبقه ويستخدمه أحسن استخدام وتطبيق ؛ فربما رأيت طلابنا في المدارس يتعلمون الطبيعة والكيمياء ، والرياضة والأدب ، ورأيت الناس في شوارعنا وبيوتنا يستخدمون السيارة والمسرة والبرق والمذياع ، ربما رأيت ذلك كله فصحت لنفسك في إعجاب : أما والله إن منا لعلماء ومعلمين ومتململين ، أين الفرق — إذاً — بيننا وبين بلاد الغرب التي سارت بذكرها الركبان ؟ فأنا أعلم سرعة الوقوع في مثل هذا الخطأ ؛ مثال ذلك أني كنت

أتحدث إلى طيب مصري قدير نابه على شاطئ البحر من مدينة
« برايتن » في إنجلترا .

قال الطيب الصديق : جئت إلى هذه البلاد (إنجلترا)
يحدوني الأمل أني لا شك واجد عند أساطين الطب ما يستثير
منى العجب والإعجاب ، فإذا بالأساطين لا يكادون يسمعونني في
الطب جديدا ؛ أفنحن بعد ذلك مصدقون لما يذيعه المعجبون بهذه
البلاد وأصحابها ؟ .

قلت له : لا تخط يا صديقي بين الإبداع والتقليد ، وحذار
أن تمزج بين الابتكار والتكرار ؛ فهؤلاء الناس هم الذين خلقوا
لك الطب خلقاً بعد بحث ودراسة وتمحيص ، ثم دونوا عليهم في
كتاب ثم أرسلوا لك الكتاب وأنت في القاهرة المعرّية ناعم
البال ، فنشطت كما ينشط « الشطار » وحفظت الكتاب عن
ظهر قلب من الغلاف إلى الغلاف ، فإذا ما جئت اليوم ها هنا
وسمعت صاحب الكتاب ومبدع مافيه يتحدث إليك بما يرن في
أذنيك رنين المهود والمألوف ، فلا يخذعك ذلك عن الحقيقة
الساطعة ، وهي أن من بحث ودرّس ومحص ثم دون نتأج بجنه
ودرسه وتمحيصه هو الطيب العالم ؛ أما أنت فتلميذ « شاطر »
حفظ ووعى وطبق ما حفظ وما وعى .

فلو فرضنا أن جماعة من الجن تأمرت على ثمار المدينة كلها
ففتحها محوا بين عشية وضحاها ، واستيقظ الناس ذات يوم ليروا أن
بلادهم قد خلت من سياراتها وطياراتها وعلومها وآدابها وتصاويرها
وتماثيلها ، بل لو فرضنا أن جماعة الجن المتأمرة قد أحكمت تدبير
المؤامرة فعمدت إلى محو كل أثر لهذه الأشياء من أذهان عارفيها ،
لو فرضنا ذلك لتوقعنا لإنجلترا أو فرنسا — مثلا — أن تبتدع
السيارة والطيارة من جديد ، وأن تخلق علومها وتنشئ آدابها من
جديد ، وأن ترسم تصاويرها وتنحت تماثيلها من جديد ، لأن
هذه الأشياء كلها كانت من خلقها وإبداعها ، وليس أيسر على
الخالق من أن يعيد خلقه سيرته الأولى ؛ أما نحن الذين لم نخلق
من هذا كله شيئا ، فسيكتب علينا بعد مؤامرة الجن أن ننتظر في
خلاء حتى يفرغ أولئك الخالقون من خلقهم وإنتاجهم ، فننقل
بعض ما خلقوا وما أنتجوا ؛ ثم سرعان ما يأخذنا الغرور فنصيح
لأنفسنا هاتفين : الآن قد استوى الماء والخشبة ! لقد زال ما بيننا
وبين الغرب من فروق !! لكن الفرق بعيد بعد ما بين السماء
والأرض ، بين الابتكار والتكرار ؛ هم في الغرب يخلقون ،
وقصارى جهدنا أن ننقل عنهم بعض ما خلقوا ؛ فلماذا لا نخلق
ولا نبتكر ؟ هذا هو السؤال الذي ألقته في ختام المقال السابق

وردت عليه في إيجاز بما أراه جوابا صوابا ، وهو أننا لا نخلق ولا نبتكر لأن لنا أخلاق العبيد ، والخلق إنما يحتاج إلى سيادة وعزة وطموح ، وقد وعدت أن أفصل القول في هذا الرأي بعض التفصيل .

والرأى عندي هو أننا عبيد في فلسفتنا الأخلاقية ، وعبيد في فلسفتنا الاجتماعية ، وعبيد في بطانتنا الثقافية .

فنحن عبيد في فلسفتنا الأخلاقية لأن مقياس الفضيلة والرذيلة عندنا هو طاعة سلطة خارجة عن أنفسنا أو عصيانها ؛ فأنت فاضل إن أطعت ، فاسق إن عصيت ، فلست أنت الذي يشرع لنفسه ما يأخذ وما يدع وما يعمل وما لا يعمل ، ويستحيل أن تكون إنسانا حرا إلا إذا كان لك من نفسك مشرع يهديك سواء السبيل ، بغض النظر عما تمليه السلطة الخارجة عن نفسك ، وبغض النظر عن كل ما يترتب على عملك من ثواب أو عقاب ؛ إذا أنت أحسنت إلى الفقير لأنك مأمور أن تحسن إلى الفقير ، فأنت في إحسانك عبد ياتمر بأمر سيده ، وقد يكون هذا السيد رأس القبيلة أو رئيس الحكومة أو قانون الدولة أو أبك أو كائنا من كان ، لكن جوهر الأمر واحد في جميع الحالات ؛ أما إذا أحسنت إلى الفقير صادرا في ذلك عما تمليه عليك نفسك من

واجب يحتمه العقل الخالص ومنطقه ، كنت في ذلك سيدا حرا يستهدى نفسه سواء السبيل .

قد يعمل زيد من الناس عملا فاضلا حين ينفذ بعمله هذا أمرا صدر له من سلطة خارجة عن نفسه ، وعدته ثوبا إن عمله ، وتوعده عقابا إن تركه ؛ وقد يعمل عمرو نفس العمل الفاضل الذي عمله زيد ، لا لأنه مأمور بفعله ، بل لأن منطق عقله يهديه من تلقاء نفسه إلى فعله ؛ أقول قد يتشابه زيد وعمرو كل التشابه فيما يعملان في موقف معين ، لكنهما يختلفان في الدافع إلى العمل ، فيكون الدافع عند زيد هو تنفيذ الأمر الذي صدر إليه ، بينما يكون الدافع عند عمرو وهو الاهتمام بهدي نفسه ، فيكون زيد في عمله عبداً ، ويكون عمرو في عمله حرا ، على الرغم من تشابه ما يعملان .

وأنا زعيم لك أننا نحمل في صدورنا أنفس العبيد ، لأن فلسفتنا الأخلاقية كلها قائمة على تنفيذ ما نؤمر به .

ونحن كذلك عبيد في فلسفتنا الاجتماعية ، سواء في ذلك الأسرة بصفة خاصة والمجتمع كله بصفة عامة ، فالأسرة عندنا قائمة — من الوجهة النظرية على الأقل — على الاستبداد من صاحب الأمر والطاعة العمياء ممن يعتمدون في حياتهم عليه ؛ فالزوج

صاحب الكلمة النافذة على زوجته ، والوالدين كليهما سلطة التحكم في الأبناء ؛ وكثيرا ما قلت ذلك لأصدقائي فأجابوني بإشارات التهكم من وجوههم وأيديهم : تعال فانظر ، تر الزوجة مستبدة طاغية ، وتر الأبناء ذوى إرادة نافذة ودلال ؛ لكن تهكم الأصدقاء لا يقنع ، لأننى لا أزال أنظر إلى الناس من حولى فألاحظ أن الأسرة المثالية التى يفخر بها سيدها ويتمدح بها الناس ، هى التى يكون للزوج فيها على زوجته كلمة لا ترد ، ويكون للوالدين فيها حق الأمر الذى يجب على الأبناء أن يصدعوا به ؛ ولا أزال أنظر إلى الناس من حولى فألاحظ أنه بتقدير ما يكون للزوجة من مساواة بزوجها ، وللأبناء حق مناقشة الوالدين فيما يرغبون وما لا يرغبون ، تكون الأسرة بعيدة عن السكال فى أعين الناس .

مثل هذه الأسرة شبيهة بالدولة الاستبدادية على نطاق ضيق ، فيها حاكم بأسره طاغية ، وشعب يطيع ولا يناقش ، فيها راع ورعيته بالمعنى الحرفى لهاتين الكلمتين ، أعنى أن فيها راعياً وقطيعةً من الخراف ؛ لو كان سيد الأسرة ممن يحبون الصمت فى الدار وجب على العيال أن يصمتوا فى حضرته ، وفى ذلك تضحية واضحة لمصلحة العيال فى سبيل مزاج العائل ، ولو كانت

الأسرة دولة حرة ، لفكر الكبير فى سبيل مصلحة الصغير بتقدير ما يتوقع من الصنير أن يفكر له فى صالحه ، الكبير من طبيعته الصمت والصغير من طبيعته الزياط ؛ فبأى حق يك أصحاب الجيل الحاضر أبناء الجيل المقبل ؟ لكنها فلسفة اجتماعية ورثناها فى نظام الأسرة وتمسكنا بها ، وهى تنطوى — كما قدمت — على بث أخلاق العبيد فى نفوس الناشئين .

ونحن عبيد فى فلسفتنا الاجتماعية أيضاً بالنسبة للمجتمع كله على وجه العموم ؛ فالمجتمع عندنا قائم على أساس أن الناس درجات ؛ وليس من اليسير على عقولنا أن نفهم ولا أن نسمع أن الناس قد تختلف أعمالهم مع تساويهم فى القيمة الإنسانية ؛ فمن يحتل درجة أعلى له الحق — من الوجهة النظرية على الأقل — أن يستبد بمن هو فى درجة أدنى ؛ والعكس صحيح ، أى أن من يحتل فى المجتمع درجة أدنى عليه واجب أن يذل لمن هو أعلى منه ؛ وإنه ليكفيك أن تلتقى نظرة خاطفة على تتابع الدرجات بين موظفى الحكومة ، وشدة اهتمام الموظفين بها اهتماما يكاد لا يبقى لهم من الوقت لحظة واحدة يأكلون فيها هنيئاً ويشربون مريئاً — ولا أقول لحظة واحدة يعملون فيها ما يؤجرون على عمله — يكفيك هذا لترى أساس المجتمع واضحاً منعكساً فى نظام

الحكومة ، والنظر إلى الناس على أنهم درجات منطوية على عبودية وطنيان ، عبودية لمن يقع فوقك ، وطفانيان بمن هو دونك في سلم البشر .

ونحن كذلك عبيد في بطانتنا الثقافية ، نكره المتشكك ونمقته ، ونحب المؤمن المصدق ونقدره ؛ يسودنا ميل شديد إلى الإيمان بصدق ما قاله الأولون ، كأنما هؤلاء الأولون ملائكة مقربون ، وكأننا أنجاس مناكيد ، ولو حلت هذا الموقف تحليلاً صحيحاً ، ألفتيه موقف العبد نحو سيده ، فأنت تقرأ الكتاب — والكتاب القديم بوجه خاص — فلا ينشط فيك عقل الناقد الذي ينظر إلى الكتاب نظرة الند للند يناقشه الحساب فيما يقول ، بل تقف مما تقرؤه موقف المستمع الذي حرم الله عليه أن يتشكك في صدق ما يقال ؛ ومن هذا القبيل ميل الناس بصفة عامة إلى تصديق المطبوع ، وميل التلاميذ إلى الإيمان بصدق ما يقوله المعلم ؛ هذه وأمثالها عبودية فكرية ، ويستحيل أن تكون إنساناً حراً بغير شيء من الفكر المستقل الناقد الحر .

فلئن زعمت لك أننا لا نكاد نخلق شيئاً جديداً في العلم أو

الأدب أو الفلسفة أو الفن ، ثم زعمت لك أن علة ذلك العجز هو ما نحمله في صدورنا من أنفس العبيد ، لأن الخلق لا يكون بغير غزوة وطموح ، فإبما أردت شيئاً كهذا الذي سقته إليك مثلاً يوضح ما أريد .

أخلاق العبيد

سأقول وأعيد ، ثم أقول وأعيد ، إننا نتخلق بأخلاق العبيد ،
مهما بدا علينا من علائم الحرية وسمات السيادة ؛ سأقول ذلك
وأعيده ألف ألف مرة ، لعله يطنُّ في الأذان فيرن صداه في
الأموس ، فتقر آثاره في النفوس ؛ ولو كان جزأئى من ذلك كله
أن أحول رجلا واحداً ، أستغفر الله ، بل لو كان جزأئى من ذلك
كله أن أحول نفسى من العبودية إلى الحرية ، ومن النذل إلى
العزة والسيادة ، أعددت ذلك جزاءً وإيفاءً شافياً ، ولاستقبلت
منيتى بعدئذ مطمئناً راضياً .

لقد زعمت لك^(١) أيها القارئ الكريم أننا عيال على العالم
المنتج ، لا نكاد نخلق شيئاً واحداً جديداً في الأدب أو العلم أو
الفلسفة أو الفن ، لا أقول اليوم ، ولا أقول أمس ، ولكنى
أقول إننا لم نكند نخلق جديداً من أول الزمان إلى يومنا هذا ؛
لقد كنت أحدث منذ أيام إلى إمام من أئمة الأدب في الشرق
العربي ، فقال : إن مصر في كذا ألفاً من السنين لم تنجب أديباً

(١) انظر مقالتي « لماذا لا نخلق » .

عظيماً ، فرددت عليه في ابتسامة الخجل : بل إن مصر يا سيدي
في كذا ألفاً من السنين لم تنجب عظيماً ، لا في الأدب ، ولا في
غيره من شتى نواحي الفكر والحياة .

زعمت لك ذلك وعلته بما « نتحلى » به من أخلاق العبيد ،
لأن الخلق عندي لا يكون إلا بعد عزة وسيادة وطموح ؛
فلاحظت لك أننا عبيد في فلسفتنا الأخلاقية ، لأننا نصدر فيما
نعمل عن طاعة لأمر سلطان خارج عن نفوسنا ، ولاحظت لك
أننا عبيد في فلسفتنا الاجتماعية ، لأننا نقيم نظام الأسرة ونظام
المجتمع على أساس من سيد ومسود ، ثم لاحظت لك أننا عبيد
في بطانتنا الثقافية ، لأننا ننصاع في سر يشبه الانزلاق نحو
الإيمان والإعجاب بما قاله الأولون .

ولو كنا عبيداً ناقمين ساخطين على ما نحن فيه ، جاهدين
ساعين نحو إعزاز النفس وتحريرها ، لكان الخطب وخف البلاء ،
لأن أول مدارج الإصلاح نقمة وسخط على الحاضر ، ورغبة
في التغيير وسعى نحو تحقيقه ؛ لكن الخطب — فيما أرى —
فادح ، والبلاء جسيم ، لأننا نجد من العبودية مرتعاً خصيباً
نسرّح فيه ونمرح ، مغتبطين أشد الغبطة ، راضين أكمل الرضى ؛

وقد عبرت عن ذلك في مقال « الكبش الجريح »^(١) ، إذ عجبت لهذا « الخروف » — وقد وثب عليه الذئب فزق منه وانتهش — عجبت له كيف استمرأ ضرب الخالب ، واستلذ وقع الأنياب ؛ دماؤه تسيل وعلى شفثيه ابتسامة ، ويبلغ الذئب فيه ويلعق وفي عينيه نظرة استسلام ورضى !

لكن لما زعمت أننا عبيد ، عجب فريق مما زعمت ، وأخذ كل يتلفت حوله لعله يرى في جاره مصداق ما أقول... وأعجبا ! كيف نكون عبيداً وليس في أرجلنا أصفاد ولا في أيدينا أغلال ؟ بل كيف نكون عبيداً وقد حفظنا في المدارس أن أمهاتنا قد ولدتنا أحراراً ، ولا يجوز لأحد أن يستعبد أحداً ؟ ... كلا ! أنت أنت العبد لا تتلفت ، والأغلال والأصفاد في طوية فؤادك ودخيلة نفسك ، ولو كانت في يديك أو قدميك ، لكان الخطب أيسر ، لأن تحطيمها عندئذ يهون ؛ أنت أنت العبد لا تتلفت ، فليست تستطيب لنفسك عيشاً بغير سيد ، إن لم تجده في الأرض التمسته في السماء .

لقد رأيت بعيني رأسي — إذ كنت في لندن — وزيراً في الوزارة الإنجليزية الحاضرة — مستر نويل بيكر — كان يمثل

(١) انظر ص ١٠٣

حكومته في جمعية الأمم المتحدة ، رأيته بعيني رأسي ذات يوم ، حين آن أوان الشاي في العصر ، ينزل إلى طابق البناء الأسفل ليقف في صف كان بين أفراد صغار الكتبة والخدم ! وقف هناك ينتظر دوره ليشتري فنجاناً من الشاي وقطعة من الكعك ؛ وما فكر هو ، ولا فكر أحد ممن وقفوا أمامه أن تكون له أسبقية بحكم منصبه ، فسألت نفسي : هل يمكن أن يحدث ذلك في مصر ؟ وأجبت نفسي : إن حدوث ذلك في بلادنا مستحيل لسببين :

الأول — وهو أخف السببين شراً وأقلهما وبالاً ، هو أن الوزير المصري لا يرضى لنفسه أن يكون في جمهرة من الناس تضم بين أفرادها عدداً من صغار الكتبة والخدم ، لأنه — كغيره من البشر — يريد لنفسه سطوة وسيادة ، وهاتان شرطهما « الترفع » و « التعالي » .

الثاني — وهو المأساة الحقيقية التي تمزق النفوس كذا ، لو كان لنا نفوس يمزقها الكمد — الثاني هو أنه حتى لو فرضنا حدوث المستحيل ، ففرضنا أن الله قد هيا لنا الوزير الذي يجد في نفسه « رفعة » لا تحتاج إلى « ترفع » و « علواً » لا يعوزه « التعالي » ، فلم يجد مضاضة في الوقوف في صف الكتبة والخدم

ساعة العصر ، ليأخذ في دوره فنجانه من الشاي ، أقول إننا لو فرضنا حدوث هذا المستحيل ، لأبى الناس أنفسهم على الوزير أن يكون مثلهم ، وأن يقف معهم على قدم المساواة في شئون حياته الخاصة التي لا يكون فيها وزيراً ؛ لو تنازل الوزير المصري ووقف في الصف مع الكتبة والخدم ، لأبى عليه ذلك هؤلاء الكتبة والخدم ، وتسابقوا إلى التنجى للوزير الخطير عن مكان الصدارة في الصف ، بل لتسابقوا إلى دفع القرش أو القرشين نيابة عنه ، بل لتسابقوا إلى حمل فنجانه إلى حيث يطيب للوزير الجلوس .

ولو حدث ذلك وقلت لأحد ممن وقفوا في الصف : هذه منك عبودية وذلة ، لدهش من قولك وأخذ العجب ونظر إلى يديه وإلى رجله ، حتى إذا لم يجد بها أغلالا وأصفادا ، صاح في وجهك محتجاً غاضباً : وعجباً ! كيف أكون عبداً وليس في قديمي أصفاد ولا في يدي أغلال ؟ وأعود فأستعير شيئاً مما قلته في مقالة «الكبش الجريح» : «قل في ذلك ماشئت يا «خروف» ، قل إنها وداعة الحملان ، أو قل إنه التواضع ، وإن للتواضع عند الله رفعة الشأن ، أو قل إنه كرم النفس ، وليس الكرم بغريب على بني القطعان ؛ قل في ذلك ماشئت يا خروف ، لكنه عندي

علامة لا تخطيء على ما في نفسك من ذل العبيد ، الذي يستمرى .
ضرب الخالب ، ويستلذ وقع الأنياب .

وأحب أن أذكر لك على سبيل الموازنة بالوزير الإنجليزي الذي وقف في صف الكتبة والخدم ، مصرياً كبيراً — إذا قيس الكبر بدرجات الوظائف ، كما تقاس حرارة الماء بالترمومتر — أعرفه حق المعرفة ، ويعرفني حق المعرفة كذلك ، لقيته بعد غيبتى أعواماً ، وشاءت الظروف أن نلتقي في ديوان حكومي ، فأرادت له أوضاع المجتمع أن يسلم على تسليم الذي لا يعرفني كثيراً أو قليلاً ، وأنا لا أهتم به هو ، لأني موقن أنه طيب النفس كريم العنصر ، إنما أتهم المجتمع بأسره الذي هو عضو فيه ، لأن هذا المجتمع — فيما يظهر — هو الذي وسوس له ألا يسلم على الناس أمام الناس في شيء من الترحيب ، خشية أن يظن الناس أنه أمسى وبات مساوياً للناس !! وعندئذ ابتسمت لنفسى ، أعنى أنني ابتسمت ابتساماً أحسها دون أن يراها الناس — وأنا كثير الابتسام لنفسى هذه الأيام — ابتسمت لنفسى لما أدركت أن المصري الكبير قد فوّت الغرض على نفسه وهو لا يدري ، وإليك البيان :

أراد المصري الكبير أن يكون كبيراً — مع أنه كبير —

تتصور — مثلاً — عالماً متبحراً في علمه متملكاً نواصيه ، يعمل في معمله بغية الوصول إلى نتایج في العلم جديدة ، هل تتصور مثل هذا العالم راغباً في بسط نفوذه على الناس ؟ لا أظن ذلك ، لأنه ليس بحاجة إلى مثل ذلك ، فهو يتجه بأمله وجهوده نحو الطبيعة يريد أن يملك زمامها ، لا نحو عباد الله ينتغى إذلال رقابهم ؛ هو لا يريد بغيًا ولا طفياناً ، لأنه قادر ماهر ، مكتمل بنفسه ، والعكس صحيح ، أى أن الإنسان إذا ما شعر بخواء نفسه وعجزها وهي وحدها ، التمس القوة عن طريق الآخرين ، فبطش وتعسف .

الطاغية في صميم طبيعته عبد يذل للقوة حيث يراها ، كما أنه يبطش بالضعف أينما رآه ؛ الضعف عند الإنسان القوى القادر يستثير العطف والإشفاق ، أما الضعف عند الذي صاغه الله طاغية بطبعه ، فيغرى بالاعتداء ، وكلما ازدادت الفريسة ضعفاً ، ازداد الطاغية بطشاً وعسفاً وطفياناً ، والعبودية والطفيان وجهان لشيء واحد .

والرأى عندي هو أننا عبيد لأننا طغاة ، وطفاة لأننا عبيد . وأما الإنسان الحر القادر المكتفى بنفسه في عزة وكبرياء ، فلا هو يطنى بالضعيف ، ولا هو يعنو بوجهه ذلاً لطاغية .

فأخذ لغايته سبيلاً يعرفها علم النفس ودارسوه ، ألا وهي اصطناع القوة ليمتاز من سائر الناس ، ولا شك أن من دواعى القوة أن يسلم عليك الناس فلا تأبه للناس ! وهذا في ذاته من المصرى الكبير جميل جد جميل ، لأن هذا هو ما أراد الله لعباده ، وليس في وسع مصرى كبير أو صغير أن يعصى ما أراد الله لعباده ؛ لكن الذى غاب عن المصرى الكبير فلم يدركه ، هو أن القوة المشودة لها سبيلان : إحداها حقيقية تؤدى إلى القوة بمعناها الصحيح ، وأما الأخرى فسبيل زائفة تخدعه وتخضع أمثاله ممن لا يتعمقون الأمور إلى لبابها ؛ وسبيل القوة هما القدرة والسيطرة ، المقدرة هي السبيل التي لا زيف فيها ولا خداع ، والسيطرة لذاتها هي السبيل المضللة الخادعة ؛ وهي مضللة خادعة ، لأنها تؤدى بسالكها إلى عكس ما أراد لنفسه ، إذ تؤدى به إلى الضعف والعجز ، وإنما أراد لنفسه قوة وسلطاناً .

والعجيب في هاتين السبيلين ، سبيل القدرة والسيطرة أنهما قبيضان لا يجتمعان ، فإن كنت قويا بسبب قدرتك فيستحيل أن تلجأ إلى بسط سيطرتك على الآخرين ، وإن كنت راغباً في بسط سيطرتك ، فيستحيل أن تكون قادراً ماهراً ، وقد يبدو هذا الكلام عجيباً ، لكنه فيما أعتقد كلام صواب ؛ فهل

المحتويات

الصفحة

٥	مقدمة
٧	أدب المقالة
١٦	البرتقالة الرخيصة
٢١	ذات الملمين
٢٧	شيطان الجرذ
٣٤	ثورة في خزانة الكتب
٤١	خطيب هايد پارك
٤٩	جنة العبيط
٥٧	في سوق البغال
٦٧	بيضة الفيل
٧٣	قصاصات الزجاج
٨١	الدقة الثالثة عشرة
٩١	شعر مصبوغ
٩٧	تجويد النمر
١٠٧	الكبش الجريح
١١٤	لست أومن بالإنسان
١٢٢	حكمة اليوم

الصفحة

١٣٠	قارئ الأفكار
١٤١	النساء قوامات
١٥١	أعذب الشعر أصدقه
١٦١	قوة الخيال
١٧٠	لماذا لا نخلق (١)
١٧٩	لماذا لا نخلق (٢)
١٨٨	أخلاق العبيد

مطابع الشروق

بكرت: ص ٨٦٤ - هاتف: ٣١٥٥٩ - ٣١٥١١ - رقم كاشروك - تلمن: SHOROK 20175 LE
القاهرة: شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - بوفيا: شروق - تلمن: SHOROK UN 83091